الفصل الأول

«وإن زنى وإن سرق»

رغم أنف أبي ذر

﴿١﴾ الدعاة إلى الله .. هداة لا قضاة

إن المهمة الحقيقية للدعاة إلى الله عز وجل ليست إخراج الناس من الإسلام، أو الحكم عليهم بالكفر أو الفسق أو النفاق .. ولكن مهمتهم الحقيقية هى هداية الخلائق .. والأخذ بأيديهم إلى جنة عرضها السموات والأرض .. ووظيفتهم الأساسية هى تضميد جراح أمتهم .. وإعادة العصاة من المسلمين إلى حظيرة الإيمان .. فليس من شأن الدعاة إلى الله تعالى أن يطلقوا على الناس الأحكام .. ولم يكن ذلك شأنهم فى يوم من الأيام.

إن الله عز وجل لم يتعبدنا بإخراج الناس من الإسلام . وإدخالهم فى الكفر .. وإنما تعبدنا بإدخالهم فى الإسلام، وإرشادهم بكل رفق إلى طريق الله عز وجل .. فنحن دعاة لا قضاة .. وهداة لا ولاة .. والحكم على الناس هو من شأن القضاة والولاة .. فهم أقدر الناس على تحمل آثاره. وتنفيذ ما يترتب عليه .. كما أن لهم من الملكات والقدرات ما يؤهلهم لتحرى الحق وإصابته .. فهم قادرون على فحص الوقائع .. وتمحيص الأدلة .. واستدعاء الشهود .. ولهم من الهيبة والسلطان ما يضفى على أحكامهم قوة رادعة .. ويجعلها موضوع قبول بين الناس .. ولذلك يكون لأحكامهم أثر إيجابى فى إقرار الحق وإبطال الباطل .. ويترتب عليها كثير من الفوائد الدينية والدنيوية.

أما الدعاة إلى الله، فلهم فى ذلك الأمر شأن آخر .. فهم لا يملكون من القدرات والملكات ما يؤهلهم للوصول إلى الحقيقة والصواب فى الحكم على أحد من الناس .. كما يعجزون عن التحقق من صحة ما نسب له من تهم وادعاءات وليس قدحًا فى الدعاة أنهم لا يحسنون ذلك .. فالحكم على الناس لا يدخل فى صميم عملهم ورسالتهم .. بل إنهم لو انشغلوا بذلك لابتعدوا كثيرًا عن قصدهم وغايتهم . وهى هداية الخلق إلى ربهم عز وجل ..

والدعاة إلى الله حين يتركون السعى إلى هداية الناس جانبًا. ويشغلون أنفسهم بتكفير فلان، وتفسيق فلان، وتبديع فلان، فإنهم بذلك يخسرون قضيتهم ويحيدون عن طريقهم .. ويتركون أثرًا سيئًا فى نفوس الناس يكون كافيًا لصد الناس عن الحق الذى معهم .. وبدلاً من أن يحببوا الناس فى ربهم ويرغبوهم فى الدين .. إذا بهم يبغضون الناس فى هذا الدين وفى أهله وفى الداعين إليه

.. وإذا بالناس تنفض من حولهم وتتفرق عنهم وعن دعوتهم .. فالناس مهما كان خطؤهم فى الدين قد يقبلون النصح مادام ممزوجًا بالرفق، ومخلوطًا بالرحمة والإشفاق .. ولكنهم لا يقبلون أبدًا أى توجيه ممن يطعن فيهم وفى دينهم، فضلاً عن أن يرميهم فى وجوههم بالكفر والظلم والنفاق.

لقد كان فى عهد النبى ﷺ كثير ممن يأتون المعاصى ويقترفون الذنوب .. ومع ذلك لم يفسق النبى ﷺ أحدًا منهم، ولم نسمع أنه رمى أحدًا من المنافقين مثلاً بالكفر أو وصفه علنًا بالنفاق. فالنبي ﷺ لم يبعث بذلك، وإنما كان رحمة مهداة .. وبعث إلى الناس جميعًا بالأدب الراقى والخلق الجميل.

وتأمل موقفه ﷺ حين أتى إليه رجل كان يدمن الخمر ويقام عليه الحد مرارًا .. فلما جاء ذات مرة وهو فى حال سكره، ثم أقيم عليه حد الخمر قال أحد أصحاب النبي ﷺ : «اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به» .. فماذا كان رد النبى الحليم الرحيم ﷺ؟ لقد نهاه النبي ﷺ وزجره قائلاً: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»[1] فلم يقبل ﷺ السكوت على لعن أحد الصحابه له حتى نهاه عن ذلك .. ولم يقل له يا فاسق أو يا فاجر جزاءً لإصراره على ارتكاب تلك الكبيرة.

وها هو عبد الله بن سلول رأس المنافقين. قد آذى النبى ﷺ وأصحابه المرة بعد المرة .. وبلغ من النفاق والكفر مبلغًا عظيمًا .. ورغم ذلك كله لم يقل له النبى ﷺ مرة: يا كافر أو يا منافق .. ولم يذكره بذلك فى أى خطبة من خطبه أو حديث من أحاديثه النبوية الشريفة .. وذلك رغم تيقنه ﷺ بنفاق ابن سلول وكفره الشديد.. بل كان أقصى ما قاله النبى ﷺ عنه عند طعنه فى عائشة رضى الله عنها وإشاعته لحديث الإفك بين الناس، أن خطب ﷺ فقال: «من يعذرنى فى رجل آذانى فى أهلى[2] .. إنه الأدب الراقى والخلق الإسلامى الكريم .. فبرغم شدة الخطب وعمق الجرح .. وبرغم طعن هذا المنافق للنبى ﷺ فى أشرف وأكرم ما يطعن فيه بشر ألا وهو العرض .. ومع ذلك يعرض النبى ﷺ عن ذكر اسمه أمام الناس، فضلا عن أن يرميه بالكفر أو النفاق .. فما أحوج شباب الإسلام لمراجعة خلق إمام الدعاة ﷺ .. فقد كان لا يواجه أحدًا بشىء يكرهه ولم يثبت عنه ﷺ أنه قال لأحد من الناس فضلاً عن المسلمين: يا كافر أو يا فاسق.

---

(١) رواه البخارى عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد عن عائشة – رضى الله عنها – فى مسنده.

وقد يظن بعض الشباب أن اتهام أهل المعاصى بالفجور والفسق هو من قبيل الصدع بالحق .. وتجده يشغل نفسه بذلك، ولا هم له: إلا أن يقول هذا فاسق، وهذا منافق، وهذا مبتدع، بل قد يظن فى نفسه أنه مقصر فى الصدع بالحق إذا لم يطلق هذه الأحكام .. والحقيقة أنه بذلك أبعد ما يكون عن الصدع بالحق .. فالصدع بالحق ليس معناه أن تقول لمسلم يا فاسق أو يا فاجر أو يا مبتدع .. فإن في هذا الأسلوب تنفيرًا عن الحق وتشويها لصورة الحق.

ولكن الصدع بالحق يعنى بيان الحق للناس وتيسير فهمه لهم برفق ولين وسهوله بحيث يتسلل هادئًا إلى نفوسهم .. وتقتنع به عقولهم دون إساءة إلى الخلق أو طعن فى أحد منهم.

والداعية العظيم هو الذى يستطيع أن يجمع بين الصدع بالحق وعفة اللسان .. وبين تعظيم الحق والرحمة بالخلق .. وبين مراعاة الحق وملاطفة الخلق.

﴿٢﴾ ورحمتى وسعت كل شىء

يصعب أحيانًا على بعض النفوس أن تتصور رحمة الله تعالى بعباده المذنبين .. ويشق عليها أن تستوعب عفوه سبحانه عن العصاة المخطئين .. وهؤلاء حين يبصر الواحد منهم أهل المعاصى والذنوب يتساءل فى نفسه طويلا .. كيف يريد هذا الزانى المصر على ارتكاب الفاحشة أن يدخل الجنة؟! .. وذلك الذى داوم على شرب الخمر فلا يكاد يفيق من سكره .. أو هذا الذى سفك دماء المسلمين بغير حق .. أو عاش حياته آكلاً للحرام آخذًا للربا .. هل يظن هؤلاء جميعًا أن لهم فى دار النعيم مكانًا وموضعًا؟! بل كيف يتصورون أنهم ما زالوا فى دائرة الإسلام أصلاً؟! وماذا بقى لهم من الإسلام بعد كل ما فعلوه؟! وهل يعقل أن يجمع الله فى مستقر رحمته بين رجل قضى عمره طائعًا لربه، حافظًا لحدوده .. وآخر أضاع عمره فى المعاصى والمحرمات، يظلم الناس ويعيث فى الأرض فسادًا؟! وهذه المرأة العارية التى تفتن الشباب .. وتدعوهم - تصريحًا أو تلميحًا- إلى الوقوع فى الفاحشة .. كيف تدخل الجنة جنبًا إلى جنب مع تلك العفيفة الشريفة التى سترت نفسها .. ووقفت عند حدود ربها؟! بل كيف يتصور أن يبخل مسلم على ربه بإخراج زكاة ماله .. ثم يطمع بعد ذلك أن يكون من أهل الجنة؟!

هذه التساؤلات وغيرها تحيك فى صدور من زلت أقدامهم فى هوة التكفير .. وتدفعهم دفعاً لإخراج هؤلاء العصاة من رحمة الله تعالى، وطردهم خارج دائرة الإسلام والإيمان .. وما علم أولئك سعة عفو الله تعالى وعظيم رحمته .. بل قد غاب عن الكثير منهم كيفية معاملة الله سبحانه لعباده.

إن أولئك الذين سقطوا فى هوة التكفير قد ظنوا أن الإيمان كل لا يتجزأ .. فالناس عندهم إما مؤمن كامل الإيمان .. وإما كافر ليس فى قلبه مثقال ذرة من إيمان .. وغاب عن ذهنهم أن الإيمان يزيد وينقص .. وأن الذنوب والمعاصى تنقص من كمال الإيمان .. ولكنها لا تنقض أساسه ولا تذهب به بالكلية .. وأصحاب النفوس الغليظة لا علم لهم بكرم الله وفضله وجوده سبحانه ولا فقه لهم بسعة عفوه ورحمته .. ولا يتصورون أن يغفر الله تعالى للعصاة المذنبين، أو أن يشملهم برحمته التى وسعت كل شىء.

إن الله عز وجل قد كتب على نفسه ألا يخلد فى النار من لا يشرك به شيئًا .. وأن يغفر لمن شاء من أهل التوحيد ، وإن بلغت ذنوبه عنان السماء .. وما أعظم حديث صاحب البطاقة حين وقف بين يدى الله عز وجل .. وهو على يقين من أنه لا محالة هالك .. فالميزان منصوب بين يديه .. وكفة الحسنات فارغة، ولم يعمل فى حياته خيرًا قط .. أما كفة السيئات فله فيها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر .. والرحيم الغفور سبحانه يقرره بذنوبه ويقول: يا عبدى ألك شىء عندنا؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول: لا يارب .. فيخرج الله تعالى له بطاقة صغيرة، ويقول: إن لك عندى هذه البطاقة .. فيقول الرجل فى نفسه: وماذا تصنع هذه البطاقة الصغيرة أمام كل تلك السجلات؟! فتوضع البطاقة وفيها لا إله إلا الله . وإذا بكفة السيئات تطيش أمام هذه البطاقة .. وترجح كفة الحسنات بكلمة التوحيد لتكتب النجاة لذلك الرجل[1] .. وليعلم هو وغيره أن توحيد الله تعالى لا يثقل معه شىء.. فأى رحمة وأى كرم أوسع من رحمة الله تعالى وكرمه سبحانه بعباده المقصرين؟!.

وكيف غابت هذه الرحمة فلم يقدر على تصورها أصحاب بدعة التكفير ألم يسمعوا ما رواه النبي ﷺ عن تلك المرأة الزانية والتى امتهنت الزنا حرفة كيف غفر الله لها وأدخلها الجنة بسقيها كلباً؟! .. فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول ﷺ قال : «بينما كلب يطيف بركية (أى : بئر) قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغى من بغايا بنى إسرائيل فنزعت موقها (أى خفها) فاستقت له به .. فسقته، فغفر لها به» [2] .. وكأن الله تعالى قال لتلك المرأة: أنا أكثر منك جودًا وكرمًا .. وعزتى وجلالى لأغفرن لك ولأدخلنك جنتى.

ولنستمع بقلوبنا إلى الإمام ابن القيم رحمه الله وهو يصور ذلك المشهد تصويرًا رائعًا ويقول : «وقريب من هذا ما قام بقلب البغى التى رأت ذلك الكلب وقد اشتد به العطش يأكل الثرى (أى التراب) فقام بقلبها مع عدم الآلة (أى الوسيلة التى تسقى بها) وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملها .. ما حملها على أن غررت بنفسها فى نزول البئر .. وملء الماء فى خفها .. ولم تعبأ بتعرضها للتلف وحملها خفيها بفمها وهو ملآن، حتى أمكنها الرقى من البئر .. ثم تواضعها لذلك المخلوق

(١) رواه الترمذى والنسائى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وقال الترمذى حسن غريب.

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة.

الذى جرت عادة الناس بضربه .. فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاءً ولا شكورًا .. فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها»[1] أ.هـ

فأين نحن من هذه الرحمة الواسعة .. وذلك الفضل العظيم من رب الأرض والسماوات .. فهو سبحانه أكرم الأكرمين .. وليس هناك أحد من عباده أوسع منه جودًا وكرمًا .. لقد غفر الله تعالى لعبد لم يعمل فى حياته خيرًا قط .. غير أنه كان غنيًّا وكان يقرض الناس فيتأخرون فى سداد ديونهم .. فكان يتسامح مع الناس وينظر المعسر منهم .. فتجاوز الله عنه وسامحه وغفر له، كما كان يتجاوز عن عباد الله ويتسامح معهم .. إذ الجزاء من جنس العمل.

عن أبى مسعود البدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ «حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شىء، إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسرًا ، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر .. قال الله عز وجل: «نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه»[2].

وتعالوا بنا نتأمل قصة ذلك الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفسًا[3].. ثم أراد أن يتوب فدله الناس على راهب، فلما جاءه وقص عليه قصته استكثر عليه الراهب عفو الله عز وجل، ولم يتصور أن يشمل المولى تبارك وتعالى ذلك القاتل برحمته .. وكأنه قال فى نفسه: «ما هذا المجنون»؟!، يقتل تسعة وتسعين نفسًا ثم يريد أن يتوب هكذا بكل بساطة .. ويطمع فى أن يدخل الجنة وأن يكون فى مقام مثلى، وأنا الذى قضيت عمرى كله فى طاعة الله؟!

كيف يكون ذلك؟!». فقال للرجل: «لا أجد لك توبة، فقتله الرجل، فأكمل به المائة»[4] .. ولكن حرارة المعصية لذعت فؤاد الرجل .. وحب التوبة لم يفارق قلبه. فسأل مرة أخرى عن أعلم أهل الأرض، فدله الناس على عالم، فلما جاءه وأخبره الخبر .. قال العالم: «ومن ذا الذى يحول

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ١٨٨ طبعة المكتبة القيمة بمصر

(٢) رواه مسلم «صحيح مسلم» (١٥٦١)

(٣) متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى.

(٤) هذا الراهب كان مجتهدًا فى العبادة ولكنه لم يكن عالمًا بالله تعالى ولا بأسمائه وصفاته .. فأغلق فى وجه القاتل باب التوبة.. وقد غاب عنه أن الله تعالى حين جعل باب التوبة من الذنوب مفتوحًا مهما كانت عظيمة، كان هذا لمصلحة جميع العباد .. إذ لو علم العاصى أن طريق الرجوع إلى الله مقطوع .. وأنه لا أمل فى التوبة لتمادى فى غيه وفقد رشده وصوابه .. وعاث فى الأرض فسادًا .. فسبحان الله الحكيم الذى له فى كل أمر حكمة بالغة.

بينك وبين التوبة.. اذهب إلى أرض كذا فإن بها قومًا صالحين فاعبد الله معهم». فلما انتصف الطريق بالرجل وافته المنية فجعل يميل بصدره نحو القرية الصالحة، وهو فى سكرات الموت من فرط حبه للتوبة، وصدقه فى الرجوع إلى الله .. فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب .. تقول الثانية لقد قتل مائة نفس ولم يعمل فى حياته خيرًا قط .. وتقول الأولى: لقد جاء تائبًا مقبلاً على الله تعالى .. فأوحى الله إليهم أن قيسوا بين المسافتين .. فإلى أى القريتين كان أقرب فألحقوه بها .. ثم أوحى الله إلى القرية الصالحة أن تقاربى، وإلى القرية الأخرى أن تباعدى .. فعدل فى نواميس الكون وغير لأجله وجه الأرض إكرامًا لنيته الصالحة، وصدقه فى التوبة والرجوع إلى الله.

ويقول الإمام ابن القيم : «وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التى لم تشغله عند السياق (أى الموت) عن السير إلى القرية، وحملته وهو فى تلك الحال على أن جعل ينوء بصدره (أى يميل نحو القرية الصالحة) ويعالج سكرات الموت .. فهذا أمر آخر .. وإيمان آخر .. ولا جرم أن ألحق بالقرية الصالحة، وجعل من أهلها»[1] .أ.هـ

وهذا الكلام السابق لا ينبغى أن يفهم على أنه تبرير لعصيان العصاة والمذنبين .. ولا التماسًا لعذرهم فى بعدهم عن الله عز وجل .. فما من عذر لمن أدار ظهره لربه .. وسعى فى ما يغضب سيده ومولاه .. ولأمثال هؤلاء يقال: لا تنظروا إلى صغر الخطيئة ، ولكن انظروا إلى عظمة من عصيتم .. فالمعصية فى ذاتها انتهاك لهيبة الله سبحانه .. ودليل على نقص توقيره فى قلب العاصى بقدر معصيته .. وأما هذا الكلام فهو بيان لكيفية معاملة الله سبحانه لعباده من العصاة والمذنبين.

ولا شك أن أولئك الذين يكفرون أهل الإسلام بالمعاصى والذنوب، قد ضاقت صدورهم قبل عقولهم عن تصور سعة عفو الله تعالى وعظيم رحمته .. وقصرت أفهامهم عن إدراك حقيقة تعامل الحق مع الخلق .. وما علموا أن ذنوب العصاة مهما بلغت فلن تعجز عفو الله عز وجل .. وأن معاصى الخلق وإن عظمت فلن تعظم على رحمته سبحانه .. أليس هو القائل فى الحديث القدسى الشريف: «يا ابن آدم .. لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك على ما كان منك

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ١٨٨ طبعة المكتبة القيمة بمصر.

ولا أبالى .. يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»[1] .. فليحذر أحد المسلمين أن يستكثر على الناس رحمة الله تعالى .. وليخف على نفسه أن يتألى على ربه كما تألى ذلك الرجل الصالح من بنى إسرائيل فعاقبه الله بأن أحبط عمله .. فعن أبى هريرة - رضى الله عنه- قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان رجلان من بنى إسرائيل متواخيين[2]، فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد فى العبادة .. فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر فوجده يومًا على ذنب، فقال له: أقصر، فقال: خلنى وربى .. أبعثت علىَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة .. فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد، أكنت بي عالمًا، أو كنت على ما فى يدى قادرًا؟! وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار». قال أبو هريرة - رضى الله عنه - : والذى نفسى بيده لقد تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته[3].

وبعد .. فما أحوجنا جميعًا لأن نعيش بقلوبنا وجوارحنا مع أسماء الله الحسنى وصفاته العلى .. وخاصة مع اسم الله الرحيم والعفو والكريم .. وأن نتأمل بعينى قلوبنا كيف يعامل الحق سبحانه وتعالى عباده المذنبين .. ولتسمو نفوسنا مقتبسة من أنوار تلك الأسماء الحسنى قدر ما تستطيع .. فالنفوس الرحيمة ترجو للناس الرحمة .. والنفوس العفوة تطلب لهم العفو .. والنفوس المتسامحة تسعى بين الخلق بالتسامح .. فما أقرب تلك النفوس من الله تعالى .. وما أجدرها بنيل عفوه ورحمته .. فالجزاء من جنس العمل .. والراحمون يرحمهم الرحمن عز وجل ..

---

(١) رواه الترمذى عن أنس وحسنه.

(٢) متواخيين : أى متآخيين

(٣) رواه أبو داود عن أبى هريرة وصححه الألبانى.

﴿٣﴾ «إذا بلغ الماء قلتين .. لم يحمل الخبث»

لو أن نهرًا جاريًا من الماء العذب ألقى فيه بعض الشوائب .. فهل تستطيع تلك الشوائب أن تعكر من صفوه شيئًا؟ أم أنها ستغيب فى غمرة مائه العذب الرقراق؟ ولو أن بحرًا عظيمًا سقطت فيه بعض الألوان والأصباغ الملوثة الضارة فهل تقدر هذه الأصباغ على أن تغير شيئًا من لونه؟ أم أنها ستذوب سريعًا فى عرض هذا البحر، وتصير أثرًا بعد عين؟

بنفس هذا المنطق يكون التعامل مع أصحاب الفضل والإحسان العظيم .. وتكون النظرة الصحيحة لأهل البذل والعطاء الواسع الفياض .. ويكون الأدب مع من قدموا الخدمات الجليلة، والإسهامات الكبيرة لأجل دينهم وأوطانهم .. فمن كان له فى الإسلام قدم راسخ، وتاريخ حافل مشهود .. فإن من الصواب فى حقه أن يعفى عن يسير زلله .. وأن يغض الطرف عن قليل خطئه .. وليس من العدل والإنصاف مع أمثال هؤلاء من العظماء والوجهاء أن تدفن جميع حسناتهم لسوء بدر منهم .. أو يهدر عظيم فضلهم لزلة وقعوا فيها .. إذ ليس أحد من البشر معصومًا غير الأنبياء والمرسلين .. وكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون .. وما من إنسان إلا وفيه عيب وإنما العبرة بكثرة المحاسن .. قال سعيد بن المسيب - رحمه الله - «ليس هناك من شريف ولا عالم ولا ذو فضل إلا وفيه عيب .. ولكن من كان فضله أكثر من نقصه، وهب نقصه لفضله».

ومادام الأمر كذلك .. فالعبرة فى الحكم على الناس بكثرة الفضائل والحسنات فمن رجحت كفة فضائله، وفاض نهر خيراته ومحاسنه .. فلا تؤثر فيه هنة من الهنات .. ولا تقدح فيه زلة من الزلات .. والمنصف .. كما قال ابن رجب الحنبلى (من اغتفر قليل خطأ المرء فى كثير صوابه) .. أو ليست القاعدة الشرعية قد قررت أن الحكم للأغلب، وأنه لا عبرة بالنادر؟! .. إذن .. فمن قل خطؤه وزاد صوابه فهو الموفق المرضى .. وهو على خير كثير.

وما أعظمك يا سيدى يا رسول الله - ﷺ - وقد علمت أمتك هذا المبدأ العظيم حين قلت فى حديثك : (إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث)[1] ومع أن هذا الحديث أصل فى باب من أبواب الفقه .. ولكنه فى ذات الوقت قاعدة جليلة وأصل مهم أيضًا فى التعامل مع الخلق .. ومعناه أن الإنسان إذا فاض خيره وتكاثرت حسناته وفضائله لم يضره يسير الهنات وقليل العيوب .. فمن غلبت حسناته سيئاته وفاق خيره شره .. وزاد فضله عن نقصه .. غمرت سيئاته فى بحور حسناته .. وعفى عن يسير شره لكثير خيره .. ووهب نقصه لفضله.

ألا ترى إلى الصحابى الجليل حاطب بن أبى بلتعة حين أفشى سر رسول الله - ﷺ - وأرسل إلى أهل مكة يخبرهم بنية المسلمين فى غزوهم .. وهو ما كاد يفسد الفتح الأعظم .. ويذهب بأثر المفاجأة على قريش .. ولكن حاطبًا كان ممن هاجر إلى المدينة وممن شهدوا بدرًا، وكان من السابقين إلى الإسلام .. وكان له من الحسنات العظيمة ما يشفع له .. فغمرت هذه الزلة فى بحر حسناته وفضائله فلم تضره .. وحين هم به عمر - رضى الله عنه - أن يؤدبه نهاه النبى - ﷺ - وقال له : وما يدريك يا عمر، لعل الله -عز وجل - قد اطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.[2] فكان شهود بدر بالنسبة لحاطب حسنة عظيمة لا تقوى مثل هذه الزلة على مواجهتها والنيل منها.

وتأمل ما كان من عثمان ذى النورين -رضى الله عنه - حين فر من القتال يوم أحد .. فكانت هنة فى حقه .. ولكن ماذا تصنع هذه الهنة أمام جبال حسناته وفيض بذله وعطائه فى سبيل الله .. فهو من السابقين الأولين فى الإسلام .. وزوج ابنتى رسول الله - ﷺ - رقية وأم كلثوم .. وهو الذى اشترى بئر رومة ووسعها للمسلمين ووهبهم إياها ابتغاء وجه الله - عز وجل - وفيها قال عنه المصطفى - ﷺ - «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم» [3] أى أن هذه الحسنة العظيمة لا يقدح فيها بعدها أى هنات أو زلات .. فقد بلغ فيض عطائه - رضى الله عنه - القلتين ويزيد .. ومحال لهذا

(١) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن.
(٢) متفق عليه عن على رضى الله عنه.
(٣) رواه الترمذى فى مناقب عثمان.

القدر من الخيرات والحسنات أن يحمل الخبث .. ولو فقه هذه المعانى الجليلة تلك الشرذمة من الهمج الرعاع الذين خرجوا على عثمان - رضى الله عنه - وقتلوه ما ارتكبوا ذلك الإثم الكبير .. ولو كانت تلك القاعدة الذهبية ماثلة فى أذهانهم لما نقموا عليه يسير هنات وزلات لا تساوى شيئًا فى جنب فضله الكبير ومنزلته السامية .. ولكن بلغ من عظيم جرمهم أن منعوه جرعة ماء من البئر التى وهبها هو للمسلمين .. ومات رحمه الله - ورضى الله عنه - عطشان ليبوء أولئك المجرمون بإثمه فى مشهد دموى حزين تدمى له قلوب المؤمنين.

وها هو خالد بن الوليد - رضى الله عنه - ذلك الأسد الهصور، والسيف المسلول على أعداء الله - عز وجل - وقد كان له بعد إسلامه زلات وهنات .. منها قتله لبنى جذيمة وهم مسلمون، حتى إن الرسول - ﷺ - تبرأ من فعله، ورفع يديه إلى السماء قائلاً: اللهم أنى أبرأ إليك مما صنع خالد[1] ومنها ما كان من أمر زواجه من امرأة مالك بن نويرة .. لا سيما وأنها كانت لا تزال فى عدتها وغير ذلك من الهنات البشرية التى لا يخلو منها أحد .. ولكنها جميعًا غمرت فى بحار فضله وعطائه .. وتصاغرت فى جوار الجبال الشامخة من حسناته .. فلو لم يكن له من فضل غير قتاله لمسيلمة الكذاب ومن معه .. وتمكنه من دحر باطلهم وإخماد فتنتهم لكفى .. فكيف وقد أمضى عمره كله فى جهاد متصل .. وقتال دائم لأعداء الدين دون كلل أو ملل؟! .. فلله كم من عدو للإسلام قصمه خالد .. وكم من أرض للشرك والمشركين طهرها الله، وأزال عنها الرجس بخالد .. وكم من راية للتوحيد قد رفرفت بجهاده .. وكم من صوت للأذان شق أركان الفضاء فى كل أرض وطئتها خيوله وهل فتحت وهزمت إمبراطورية الفرس والروم إلا على يديه.

ولعل الكثيرين منا يعرفون الظاهر بيبرس، ولكن لا يعلمون أنه كان الصانع الحقيقى للنصر على التتار فى عين جالوت - بعد الله عز وجل - فقد كان بيبرس فارساً مغوارًا قوى الشكيمة .. ومع ذلك لم يخل هذا البطل العظيم من أخطاء وهنات .. فهو الذى قتل سيف الدين قطز سلطان المسلمين فى مصر والشام أثناء عودتهما من عين جالوت .. رغم حرمة الخروج على قطز فضلاً عن قتله وإراقة دمه إلا أن هذه المعصية وتلك الزلة إذا قورنت بجبال فضله وإحسانه توارت خجلاً منها

(١) رواه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما

. . فقد أبلى بيبرس بلاءً عظيمًا فى «عين جالوت» و أذاق الله التتار على يديه كئوس الذل والهوان .. وهو أول من هزم التتار فى الشام .. وأول من غزاهم فى عقر دارهم وكسر شوكتهم .. كما يحسب لبيبرس أنه أول من أدخل تدريس المذاهب الأربعة إلى مساجد مصر بعد أن أدخل صلاح الدين الأيوبى المذهب الشافعى فقط وكان يهتم بالمساجد وبأهل العلم اهتمامًا بالغاً .. فهل تنهض معصية الظاهر بيبرس -رحمه الله - أمام هذا السيل الجارف من الحسنات والأفعال الصالحات؟! أم تذوب فى بحار فضائله وأنهار شمائله؟!

ربما تعجب كثيرًا حين تعلم ما كان من أمر السلطان العثمانى محمد الفاتح - رحمه الله - والذى فتح الله القسطنطينية على يديه وأيدى جنوده .. فقد كان لخلفاء الدولة العثمانية فى ذلك الوقت عادة قبيحة، وخلق ذميم .. وهو أن يعمد أحدهم حين يبايع بالخلافة إلى قتل أشقائه حتى لا ينازعوه الملك.. أو على الأقل يكتفى بحبسهم إن كان رحيمًا .. ولم يخرج محمد الفاتح عن نهج سلفه فى تلك العادة القبيحة، فقتل بعض أشقائه، وكانت تلك هى النقطة السوداء المظلمة فى سجل حسناته .. ولكنه مع ذلك كان ذا همة عالية، وعزيمة ماضية، ورغبة لا حدود لها فى جهاد أعداء الله ونشر دينه فى ربوع الأرض .. فجهز جيشه وكان ابن نيف وعشرين سنة وضرب الحصار على القسطنطينية حتى فتحها الله على يديه، وكان ذلك اليوم عيدًا فى تاريخ الإسلام والمسلمين .. وصار فتح القسطنطينية خطوة انطلاق نحو فتح أوروبا لتعلو راية الإسلام فيها .. ولتكتب هذه الأعمال فى ميزان حسنات القائد المسلم محمد الفاتح الذى استحق وسام النبى - ﷺ - «لتفتح عليكم القسطنطينية، فنعم الأمير أميرها»[1] .. ولعل هذه الزلة التى اقترفها محمد الفاتح تطيش أمام سجلات فضائله وحسناته.

وها هو أيضاً كليم الله موسى عليه السلام .. وقد تملكه الغضب من قومه حين عبدوا العجل .. فألقى ألواح التوراة من يديه .. ولم يكن هذا الفعل يسيرًا ولا هيناً فالألواح فيها كلام الله المقدس، ووحيه لعباده .. ولكن هذه الهنة اغتفرت لموسى عليه السلام .. وذابت فى بحار فضله وعظيم صبره فى ذات الله تعالي .. فإنه يعفى للمحب، ولصاحب الإحسان العظيم، مالا يعفى

(١) رواه أحمد فى مسنده (٤ / ٣٣٥) بلفظ لتفتحن القسطنطينية على يد رجل فلنعم الأمير أميرها.

لغيره، ويسامح بما لا يسامح به غيره .. ولنعش بقلوبنا مع شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو يؤكد لنا تلك القاعدة فيما نقله عنه تلميذه ابن القيم حين قال: «انظر إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه .. رمى الألواح التى فيها كلام الله الذى كتبه بيده فكسرها .. وجر بلحية نبى مثله، وهو هارون .. ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء فى محمد -ﷺ- ورفعه عليه، وربه تعالى يحتمل له ذلك كله، ويحبه ويكرمه ويدلله لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة فى مقابلة أعدى عدوٍ له، وصدع بأمره وعالج أمتى القبط وبنى إسرائيل أشد المعالجة، فكانت هذه الأمور كالشعرة فى البحر .. وانظر إلى يونس بن متى حيث لم يكن له هذه المقامات التى لموسى، غاضب ربه مرة، فأخذه وسجنه فى بطن الحوت .. ولم يحتمل له ما احتمل لموسى.

وفرق بين من إذا أتى بذنب واحد .. ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له .. وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بألف شفيع .. كما قيل.

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد.. جاءت محاسنه بألف شفيع[1]

فأمثال هؤلاء وغيرهم من أهل الفضل والإحسان لا تذكر هفواتهم .. ولا يسلط على هناتهم .. فلهم فى الخير أيادٍ بيضاء .. ولهم فى نصرة الدين والعمل لأجله إسهامات جليلة .. قد بلغ سيل فضائلهم مبلغاً عظيمًا .. وجاوز نهر بذلهم وعطائهم كل حد فلا تقوى الهنات والصغائر على النيل من جبال حسناتهم .. ولا تستطيع الزلات والسقطات أن تمحو سجلات خيراتهم فلو بدر منهم شىء من الهنات .. أو بدا عليهم نوع من القصور .. فكل بنى آدم خطاء والكمال لله وحده .. وكما قالوا : كفى بالمرء نبلاً أن تعد معايبه.

ومن المؤسف والمحزن أن ترى شباباً صغير السن، وحديث العهد بالالتزام يتناول بعض أهل الفضل بالطعن والتجريح .. وينظر إليهم بعين السخط مبدياً مساوئهم ومركزًا حديثه دائماً على مثالبهم .. ومسلطاً الضوء على هناتهم .. والعجيب أنه في ذات الوقت الذى يتناول فيه هذه النقائص والهنات، يغض طرفه عن عظيم حسناتهم وفضائلهم .. ويعمى بصره عن غزير عطائهم

(١) مدارج السالكين. ابن القيم (١/٢٥٥، ٢٥٦) ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.

ومناقبهم .. وما هكذا يكون العدل والإنصاف مع أمثال هؤلاء العظماء .. فضلاً عن حفظ جميلهم والاعتراف بفضلهم.

فالواجب مع أمثال هؤلاء السكوت عن هناتهم .. وعدم إهدار عظيم عطائهم وبذلهم لزلة وقعت منهم .. فالله تعالى يقول : «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» .. وإن من الإحسان أن نعرف لصاحب الفضل فضله .. وأن نحفظ له قدره .. وليس من الإحسان أبدًا أن نفتش عن الزلات والهنات .. أو نشنع على صاحب فضل كبير وعطاء واسع بسقطة أو هفوة .. ولو فعلنا ذلك فلن يسلم لنا عالم ولا شريف وصدق الإمام الذهبى - رحمه الله - حين قال : «ولو أنا كلما أخطأ إمام خطأ فى اجتهاده فى آحاد المسائل خطأ مغفورًا له قمنا عليه، وبدعناه، وهجرناه لما سلم معنا ابن نصر ولا ابن منده (من كبار علماء السلف) ولا من هو أكبر منهما»[1].

وتعالوا بنا نجلس هذه الجلسة الإيمانية مع الإمام الذهبى نتعلم على يديه درسًا عمليًا فى الأدب الجم مع أصحاب الفضل وأهل العطاء .. فقد ذم بعض الجالسين معه يومًا تفسير الإمام أبى بكر القفال .. وذكروا ميل هذا العالم لمذهب المعتزلة، وانتصاره لآرائهم .. وظن الجالسون أن الإمام الذهبى سيوافقهم فيما فعلوه وذهبوا إليه .. لاسيما وقد كان الذهبى عالمًا بتاريخ الرجال وسيرهم .. ولكن الإمام الذهبى - رحمه الله - لم يخض معهم فى ذلك العالم .. وقال معاتبًا لهم، ومعلماً شباب المسلمين درسًا فى الإنصاف والعدل: «قد مر موته (أى قد مات القفال وأفضى إلى ربه) .. والكمال عزيز .. وإنما يمدح العالم بكثرة ما له من الفضائل .. فلا تدفن المحاسن لورطة، ولعله رجع عنها .. وقد يغفر الله له باستفراغه الوسع فى طلب الحق»[2].

فما أجدر الشباب المسلم أن يستوعب هذا الدرس العظيم .. وأن يكف لسانه عن الطعن فى أناس من أهل العلم وذوى الفضل أحياءً أو أمواتًا .. لاسيما وإن كانوا قد أفضوا إلى ربهم .. فلربما حطوا رحالهم فى الجنة منذ زمن طويل فأين يذهب من تناول بعض أهل الجنة بالطعن والتجريح؟!

إنه لمن العيب الكبير فى حق الشباب المسلم أن يتجاهل عطاء السنوات الطوال لبعض أهل

(١) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٤٠)

(٢) سير أعلام النبلاء (١٦ / ٢٨٥)

الفضل والإحسان .. ثم هو يتوقف أمام بعض هناتهم وعيوبهم .. وذلك لعمرى نوع من الجحود والنكران يأنفه الطبع السوى .. ويأباه الخلق القويم ولو أنصف هؤلاء لعلموا أن يسير الزلل يغتفر فى عظيم البذل والعمل .. وأن صغائر الهنات لا تؤثر فى جبال الحسنات. فبأى حق يستبح البعض إطلاق ألسنتهم بالطعن والتجريح فى عالم جليل كأبى حنيفة النعمان - رحمه الله - ورضى عنه؟! وقد قدم فى سبيل الدين أعظم تقديم .. وعاش حياته متقلباً بين علوم الشريعة .. متبحرًا فى أسرارها .. وروائعها حتى لقب بحق «الإمام الأعظم» .. وحتى تلقته الأمة بالقبول سلفاً وخلفاً .. فلا يكاد يذكر اسمه حتى تتوالى عبارات الثناء وألفاظ الترحم والترضى عليه .. ولا يكاد عالم أو متعلم يتناول مسألة من مسائل الشرع إلا ويذكر قوله ورأيه - رحمه الله - فأى هنة تلك التى تقدح فى عظيم عطائه؟! وأى زلة تلك التى تقوى على النيل من بحار فضله؟!

وهل تؤثر بعض هنات أو عيوب فى مقام رجل عظيم مثل القارىء الشيخ/ عبد الباسط عبدالصمد - رحمه الله - على سبيل المثال؟! .. كيف وقد قضى عمره خادمًا لكتاب الله عز وجل - مترنمًا بآياته .. تالياً لها فى جميع أنحاء الأرض ويكفيه شرفاً وفخرًا أن أسلم على يديه العشرات حين سمعوا تلاوة القرآن حية خاشعة أخذت بمجامع قلوبهم وأرواحهم .. ولئن كان الله تعالى قد حفظ القرآن الكريم مكتوبًا بعثمان بن عفان - رضى الله عنه - فقد حفظ كتابه متلوًا ومسموعًا بكامل أحكامه، وبمختلف قراءاته على يد الشيخ / عبد الباسط عبد الصمد وأمثاله من القراء العظام .. ويكفيهم أيضًا أن صحائف حسناتهم مفتوحة لم تغلق بموتهم .. فمع كل آية تتردد بأصواتهم فى كل مكان تمتلىء بالحسنات كتبهم حتى يلقوا ربهم بوسام أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»[1].

(١) ومثل هذا يقال فى حق بقية القراء العظام كالشيخ / محمد رفعت ، والشيخ / شعيشع، والشيخ / الشعشاعى، والشيخ / مصطفى اسماعيل، والشيخ / الحصرى، والشيخ / البنا ، والشيخ / صديق المنشاوى وغيرهم فقد اختصهم الله بفضيلة حفظ كتابه تلاوة وأداءً بعد حفظه مكتوبًا على يد عثمان - رضى الله عنه - فهؤلاء العظماء حفظوا للأمة بأصواتهم الندية أدق تلاوة للقرآن وأحكمها .. إذاً فقد حفظ القرآن مرتين مرة فى عهد عثمان - رضى الله عنه - كتابة وأخرى فى العصر الحديث تلاوة وأداءً.

وهل تقدح بعض الهنات والهفوات فى عالم جليل مثل الشيخ محمد متولى الشعراوى - عليه رحمة الله..؟! .. ويكفى أن نسأل أنفسنا : كم مليون من المسلمين فهم على يديه العديد من معانى القرآن الكريم؟! وكم من عصاة المسلمين اهتدى بكلماته ومواعظه؟! وكم من فقراء المسلمين قد نالهم فيض عطائه وجوده؟! وقد كان يعطى عطاءً واسعاً يندر أن يكون له مثال .. كما أقام من مشاريع خيرية أطعمت فقراء، وكفلت أيتاماً، وواست أرامل، وعالجت مرضى؟!

فهل من العدل والإنصاف أن يأتى شاب لم يبذل فى سبيل الله معشار ما بذل، ثم يهدر جبال حسناته لهفوة بدرت منه؟! أو يمحو سجل فضائله لهنة وقع فيها؟! اللهم لا.

وهؤلاء العظماء وأمثالهم ممن قدموا لدين الله خدمات جليلة .. وأسهموا إسهاماً عظيماً فى رفع راية الإسلام لا ينبغى أن تذكر هفواتهم .. ولا يصح أن يشنع على أحدهم بسقطة أو هنة .. فلهم من عظيم الحسنات ما يشفع لهم هذه الزلات .. وما تطيش بجواره تلك المساوىء والسقطات .. فليحذر شباب الإسلام من التعرض لهم بالطعن والتجريح .. فهم أولياء الله عز وجل .. وإن لم يكونوا أولياء الله وهم من ضحوا بأعمارهم فى سبيل الله، وبذلوا أوقاتهم وأموالهم لرفعة شريعته .. فمن يكون لله وليًا؟! .. وليضع كل شاب نصب عينيه هذا الحديث القدسى : (من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب)[1].

وما أفدح الخطب وأسوأ الأثر حين تغيب تلك المعانى عن أذهان الشباب المسلم فعندئذ تهدر فضائل العظماء وتجحد محاسنهم .. ولعلنا نذكر بكل الحزن والأسى ما قام به البعض من جماعة التكفير بقتل الشيخ الذهبى - رحمه الله - بعد تكفيره واختطافه فى أسوأ سابقة فى تاريخ الإسلام الحديث وقد كان - رحمه الله - عالماً جليلاً مفسرًا للقرآن الكريم .. وله فى بيان أسرار الشريعة مؤلفات قيمة .. ولذلك اختير وزيرًا للأوقاف فى السبعينيات[2] وقد نقم عليه قاتلوه أشياء لا حق

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) يطلق البعض على العلماء العاملين فى المؤسسات الرسمية اسم «علماء السلطة» وهذه تسمية خاطئة لا أساس لها من الصحة .. فالعالم عالم سواء كان فى السلطة أو خارجها مادام متمسكا بدينه .. فإذا أصاب الحق وجب قبول قوله بغض=

لهم فيها[1]. ومع ذلك لم يشفع له عندهم سابق عطائه للدين .. ولو أنهم وزنوا الرجل بحسناته وسيئاته لتبين لهم أن ما اعتبروه فى حقه نقيصة ومذمة إنما هو مغمور فى بحر حسناته .. ولاذكر له فى جنب بذله وعطائه للإسلام.

فلنبدأ - شباب الإسلام ودعاته المخلصين - من هذه اللحظة عهدًا جديداً نحفظ فيه ألسنتنا من الخوض فى أصحاب الفضل والإحسان والبذل .. ونلتزم الأدب الجم مع السابقين من أهل العلم والدعوة إلى الله .. حتى وإن كان منهم نوع خطأ أو قصور .. فحسبهم صدق نيتهم فى إرادة الخير والمصلحة للإسلام والمسلمين .. ويكفيهم أن اجتهدوا حتى ولو أخطأوا .. فخطؤهم غالباً خطأ نظر واجتهاد، لا خطأ هوى وعناد.

وقد يكون من حقنا أن نختلف معهم، وأ ن نناقش رأيهم بكل أدب واحترام وتقدير .. ولكن ليس أبدًا من حقنا أن نطعن فى أشخاصهم أو نشكك فى نواياهم .. أو نسىء الظن بهم .. فليس ذلك من أخلاق الإسلام مع عوام المسلمين .. فضلاً عن رموزهم وقادتهم وعلمائهم[2] ولنسمع أخيرًا إلى الإمام الحافظ ابن عساكر - رحمه الله - وهو ينصحنا نصيحة محب مشفق .. ويحذرنا تحذير خائف وجل يقول - رحمه الله -: «اعلم يا أخى وفقنا الله وإياك لمرضاته .. وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته، أن لحوم العلماء مسمومة .. وعادة الله فى هتاك أستار منتقصيهم معلومة .. وأن من أطلق لسانه فى العلماء بالثلب (أى بالطعن والسب) ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب

= النظر عن موقعه وعمله.. أما إن أخطأ فلا يؤخذ بقوله حتى ولو كان خارج السلطة فالحق قديم لا يتغير لكونه أتى من عالم قريب من السلطة أو بعيدًا عنها والحق لا يعرف بالرجال، ولكن الرجال يعرفون بالحق، والحق دومًا أحق أن يتبع أما بالنسبة للاجتهادات الفرعية الفقهية فالمصيب له أجران والمخطىء له أجر وكلاهما مأجور مغفور له مادام محصلاً لأدوات الاجتهاد ومتبعًا لقواعده.

(١) نقم قتلة الشيخ الذهبى ـ رحمه الله - على الشيخ قبوله منصب وزير الأوقاف فى الدولة وقد كانوا يعدون العمل فى مؤسسات الدولة كفرًا وكان هذا من ضلال فكرهم .. كما نقموا عليه رده الشرعى على فكر التكفير الذى يعتنقونه، رغم أنه كان ردًا قوياً سليمًا ومنضبطًا بالشرع.

(٢) التبيان فى آداب حملة القرآن للنووى - الباب الثالث

«فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم»[1].

(١) من أكثر العلماء المعاصرين الذين تناولهم البعض بالطعن والتجريح فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله – وفضيلة الدكتور يوسف القرضاوى حفظه الله تعالى .. وهذان العالمان بالذات لهما من بحار الفضائل وجبال الحسنات ما يتصاغر بجواره أى هنه أو قصور بشرى وتاريخهما حافل بخدمة الدين والتضحية فى سبيله بالأموال والأعمار والجهود .. فليس من العدل والإنصاف أن تدفن جبال محاسنهم لهنة من الهنات .. وأمثال هؤلاء لا تذكر زلاتهم إن كان لهم زلات .. وأما أن يشنع عليهم لاجتهاد يخالفه البعض أو يستغربه فليس هذا من قبيل الأدب الواجب مع أهل العلم والفضل .. بل نوقرهم ونجلهم، ونحترم اجتهادهم، ونحسن الظن بهم حتى ولو خالفنا رأيهم ، ولم نتفق مع بعض اجتهاداتهم إن كان هناك من الأدلة الشرعية القاطعة ما يؤيد ذلك.

﴿٤﴾ لنا الظاهر .. والله يتولى السرائر

وهذه قاعدة ذهبية سطرها الإسلام بعدله ورحمته لتكون ميزانًا دقيقًا للتعامل مع الناس. . فالعبرة فى تعامل المسلم مع الخلق إنما هو الظاهر، والله يتولى السرائر .. والمسلم ليس مأمورًا بالتفتيش عما فى قلوب الناس، والبحث عما فى صدورهم ليرى ما فيها من خير وصلاح أو شر وفساد .. فليس ذلك من شأنه ، ولا هو داخل حيز طاقته .. فأمر القلوب موكول إلى علام الغيوب سبحانه وتعالى، فهو العليم، يعلم بواطن الأمور كما يعلم ظواهرها .. ولا تخفى عنه سرائر النفوس البشرية وخواطرها ألم يقل عن نفسه سبحانه ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ﴾(١). وقال أيضا ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَاتُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾(٢). إمًّا نحن بنو البشر ، فتكويننا قاصر، ونظرنا محدود .. ولو أن الله كلفنا بالتنقيب عن قلوب الناس، والبحث عما تطوى سرائرهم وتخفى بواطنهم لشق ذلك علينا .. ولكان من تكليف مالا يطاق .. والله سبحانه منزه عن ذلك، ومن أجل ذلك قال : ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاّ وسْعَهَا﴾(٣).

والحكم على الناس بالظاهر سياج متين يحمى الأمة من التفكك .. ويصون المجتمعات من الانهيار .. ولنا أن نتخيل حال الأمم والمجتمعات لو فتح باب الحكم على الناس بناءً على خلجات نفوسهم، وخبايا صدورهم .. إذن لعمت الفوضى وساد الاضطراب واتهم البرئ وبرئ المتهم .. ولكثرت الدعاوى بغير بينة ولا دليل، وتراشق الناس بالتهم الباطلة بلا برهان .. ولساد بين الناس سوء الظن واتهام النوايا والتشكيك فى خبايا النفوس .. وفى ذلك كله مالا يعلمه إلا الله عز وجل من فساد المعايش وتوقف عجلة الحياة .. وارتفاع الأمن وغياب الأمان.

من أجل ذلك قررت الشريعة هذه القاعدة لصلاح أمر الناس فى الدين والدنيا وجعلت من دخول الشخص فى الإسلام ، وإعلانه مفارقة الشرك ظاهرًا، أمرًا كافيا لثبوت عقد الإسلام لصاحبه، أيًّا كانت سريرته، وما يخفيه قلبه، فسريرته إلى الله تعالى موعدها يوم القيامة «يوم تبلى

---

(١) سورة غافر .. آية (١٩) (٢) سورة ق آية (١٦) (٣) سورة البقرة آية (٢٨٦).

السرائر»[1] أى تختبر، وتتكشف القلوب وخبايا النفوس فالعبرة فى الدنيا بما فى الظواهر .. وما بدا على اللسان والجوارح أما ما استقر فى القلب وتلجلج فى الصدر فموعده هناك فى الآخره.

«﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلبٍ سَلِيمٍ﴾»[2] .. وها هو القرآن يؤكد تلك الحقيقة مخاطبًا أهل الإيمان، ومعلمًا إياهم كيف يكون التعامل مع غير المؤمنين فيقول: فإنْ تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين. يعنى .. وإن أخفوا فى قلوبهم ما أخفوا .. فلا شأن لكم ببواطنهم .. إنما الشأن بالنسبة لكم فى الدنيا فيما توحى به الظواهر .. وينزل القرآن مرة ثانية موبخًا بعض أصحاب النبى ﷺ حين عدلوا عن الظاهر وما يدل عليه إلى التنقيب عما فى القلوب فأفضى بهم ذلك أن سفكوا دم مسلم معصوم بغير حق .. فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: مر رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب النبى ﷺ فسلم عليهم، فقالوا: لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا (أى ليحمى نفسه من القتل) فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه للنبى ﷺ فنزل قول الله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾[3]، [4]. فانظر كيف جعل القرآن مجرد إلقاء السلام .. وهو مظهر من مظاهر هذا الدين - علامة واضحة على إسلام صاحبه، ومانعًا من التعدى على حرمة دمه وماله .. وذلك تأكيدًا على قاعدة الأخذ بالظاهر وترك السرائر إلى الله عز وجل .. وواضح من ذلك حديث أسامة بن زيد عندما قتل الرجل الذى قال لا إله إلا الله، فعنفه النبي ﷺ ورغم أن غلبة الظن هنا أن الرجل إنما قال كلمة التوحيد خوفًا من القتل، ولكن هيهات أن تأخذ الشريعة أحدًا بظنون. وينطلق رسول الله ﷺ معاتبًا أسامة بقوله: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟». قال الإمام النووى رحمه الله: «ومعناه أنك إنما كلفت بالعمل بالظاهر، وما ينطق به اللسان، وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه، فأنكر عليه امتناعه من العمل بما ظهر باللسان»[5] .. إن رسول الله ﷺ رغم كونه مؤيدًا بالوحى .. معصومًا من الهوى، لم يكن له اطلاع على ما فى قلوب الناس .. ولم يهبه الله عز وجل تلك الخصيصة

---

(١) سورة الطارق آية ٩ (٢) سورة الشعراء الآية ٨٨، ٨٩ (٣) سورة النساء آية ٩٤

(٣) شرح صحيح مسلم للنووى (٣٨١) (٥) رواه الإمام أحمد

التى تفرد بها سبحانه .. ولوأراد الله عز وجل أن يهبها لأحد لوهبها لرسوله وحبيبه المصطفى ﷺ .. وقد أخبر ﷺ عن نفسه مؤكدًا ذلك فقال فى الحديث الشريف: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلىَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له بنحو ما أسمع»[1] .. الحديث، أى أنه ﷺ إنما يفصل بينهم بما بدا له من ظواهرهم، وما نطقوا به بألسنتهم، وحساب سرائرهم على الله سبحانه وتعالى.

ومن عظيم اهتمام العلماء بتلك القاعدة بوب لها الإمام النووى بابًا فى كتابه «رياض الصالحين» بعنوان: باب : إجراء أحكام الناس على الظاهر وسرائرهم إلى الله تعالى». وقد ذكر فيه من الآيات والأحاديث والآثار ما يؤكد هذه القاعدة. وكان مما جاء فيه ما رواه عبد الله بن عتبة بن مسعود- رضى الله عنه- أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «إن ناسًا كانوا يؤخذون بالوحي. فى عهد رسول الله ﷺ. وإن الوحى قد انقطع .. وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم: فمن أظهر لنا خيرًا أمنّاه وقربناه، وليس لنا من سريرته شيء الله يحاسبه فى سريرته، ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه ولم نصدقه، وإن قال إن سريرته حسنة»[2] .. وفى هذه الكلمات يتحدث عمر رضى الله عنه. .. إلى الناس عن أقوام من أهل النفاق كانوا يعيشون فى المدينة على عهد النبى ﷺ يصلون مع المسلمين، ويجاهدون معهم، ويلتزمون أحكام الإسلام الظاهرة غير أنهم قد أشربوا النفاق فى قلوبهم .. وتشبعوا بالكفر .. ورغم ذلك كان النبى ﷺ يعاملهم كمسلمين، ويحكم لهم بالإسلام بناءً على ما ظهر من أعمالهم، ويكل سرائرهم إلى الله . . وقد أطلعه القرآن عليهم بأوصافهم وسماتهم فقال عز وجل: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِفَاقِ لاَتَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[3] فكان النبى ﷺ يعلم بتعليم الله له، ويحذر من شرهم .. يقول عمر: أما وقد انقطع الوحى، ولم يعد هناك سبيل لمعرفة هؤلاء . فإن اعتمادنا يكون على الظاهر خيرًا كان أو شرًا. وليس لنا من أمر السرائر شىء.. وهكذا ينبغى أن يكون المسلم دائما فى حاله مع الناس.

---

(١) متفق عليه من حديث أم سلمة.

(٢) رواه البخارى عن عبد الله بن عتبه بن مسعود.

(٣) سورة التوبة الآية ١٠١.

﴿٥﴾ الالتزام بالدين لا يعنى تكفير المسلمين

رحم الله سلفنا الصالح .. فقد كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا .. وأقلها تكلفًا .. وأكثرها تورعًا عن طعن المسلمين فى دينهم وإسلامهم .. والخوض فى دمائهم وأعراضهم .. وهذه حقيقة ربما غابت عن كثير من الشباب المسلم المتحمس فى غمرة حميته للدين .. وغضبته لانتهاك حرمات الله عز وجل ..

إن التدين الحقيقى لا يعنى تكفير أكبر قدر من المسلمين أو تفسيقهم أو الحكم عليهم بالابتداع دون مبرر شرعى .. والالتزام الصادق بالدين ليس معناه إطلاق اللسان فى إنزال هذه الأحكام على أشخاص الأمة وأفرادها .. ولو كان ذلك تدينًا والتزاماً لسبقنا إليه من قبلنا من علماء الأمة وسلفها الكرام .. ورغم غزارة المعلومات التى شاعت بيننا عن تلك الثلة المباركة .. ورغم كثرة الكتب التى أسهبت فى ذكر مناقبهم واستعراض سيرهم .. ولكننا لم نسمع عن أحد منهم كان اهتمامه بالإكثار فى وصف أحد من المسلمين بكفر أو فسق أو بدعة أو نفاق .. بل كانوا رحمهم الله كثيرًا ما يقولون من فعل كذا فهو كذا .. ومن قال كذا فهو كذا، دون التعرض للفاعل أو القائل نفسه بحكم من الأحكام .. وقد كفاهم ذلك والحمد لله .. ولم ينقص من إيمانهم وتدينهم .. كما لم يزد الإكثار من إصدار الأحكام على الناس من تدين صاحبه .. بل ربما أضره وأوقعه فى الخطأ والإثم والعياذ بالله، وهذا يدل على عبقرية سلفنا الصالح وعظيم فهمهم للدين .. حيث وقفوا عند حدود بيان أحكام الشرع الحنيف وكفوا ألسنتهم عن الخوض فيما وراء ذلك من الحكم على الأشخاص، مما لا يجلب لهم نفعًا فى دين ولا فى دنيا .. فضلا عن أن يرتد فى دينهم ضررًا بالغًا وعيبًا ثقيلا يثقل كواهلهم أمام الله عز وجل.

إن نموذجًا واحدًا من أولئك العظام نقدمه لشباب أمتنا اليوم يكون كافيًا لتعليمهم أن الإكثار من تكفير هذا أو تبديع ذاك أو تفسيقه ليس شرطًا لصحة اعتقاد العبد وقوة إيمانه .. وأن حفظ اللسان عن ذلك لايعتبر نقصًا فى إيمان العبد أو خللاً فى اعتقاده كما يفهم كثيرٌ من المتحمسين للدين .. فها هو حبر الأمة وترجمان القرآن «عبد الله بن عباس» رضى الله عنهما.. لقد كان من

تقدير الله عز وجل لذلك الصحابى الجليل أن عَمر طويلاً .. وشهد أثناء حياته بعثة النبى ﷺ فكان من أوائل المؤمنين به .. ثم لحق النبى ﷺ إلى جوار ربه، فعاصر ابن عباس خلفاء الأمة الراشدين أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً - رضى الله عنهم - وشهد بعينى رأسه فتنة اقتتال المسلمين وما صاحبها من أهوال عظام .. ومنها ظهور الخوارج وغيرهم من الفرق التى مزقت شمل الأمة .. بل كان له نصيب فى علاج الخلل الفكرى والعقائدى الذى اعترى ذلك النفر من أبناء الأمة .. فقد ذهب إلى الخوارج وناظرهم فى تكفيرهم للصحابة وطعنهم فى عقيدة المسلمين .. وهدى الله على يديه آلافًا منهم عادوا إلى الحق ورجعوا للصواب، ثم عاش ابن عباس- رضى الله - عنه طرفًا من الخلافة الأموية فى أواخر حياته .. وتألم قلبه لكثير من المظالم التى قام بها بعض حكام بنى أمية .. والتى وصلت فى بعض الأحيان إلى حد تقتيل المسلمين وانتهاك أعراض نسائهم .. بل وضرب الحصار على مكة ورميها والكعبة بالمنجنيق، وقتل ابن الزبير في البيت الحرام وهو متعلق بأستار الكعبة[1]، ثم صلبه فى مكة .. إلى غير ذلك من المظالم التى لا يجرؤ حاكم على ارتكابها اليوم .. وبعد هذه المسيرة الطويلة فى الحياة .. وذلك العمر المديد لابن عباس -رضى الله عنهما- هل سمعنا عنه رضى الله عنه أو قرأنا فى الكتب التى عرضت لسيرته أنه كفر أحدًا من المسلمين بذاته؟! أو أنه رمى أحدًا من أهل الإسلام بفسق أو فجور أو بدعة أو نفاق؟! وذلك رغم تلك المظالم والانتهاكات؟! .. بل هل سمعنا عن غيره من الصحابة أو التابعين الذين عاصروا تلك الأحداث المريرة أنهم كفروا أحدًا من المسلمين أو حكموا عليه بفسق أو نفاق؟! ولو فعلوا ذلك أو قالوه لنقل عنهم، ولوصل إلينا كما وصل غيره من سيرهم وأخبارهم .. وحق لنا أن نتساءل ههنا فنقول: ألا يسعنا ما وسع ابن عباس رضى الله عنه بل وما وسع الصحابة والتابعين وغيرهم من أسلافنا الصالحين رحمهم الله؟!

نعم قد يكون فى تلك المظالم والأعمال ما يحمل فى طياته قدرًا من الفسق أو الظلم أو الفجور .. بل قد يصل بعضها فى بعض الأحيان إلى أبعد من ذلك .. هذا بالنسبة للفعل ذاته .. ولكن الحكم على الفاعل أمر آخر. وشأن آخر .. وهذا محور الحديث فى هذه المسألة.

---

(١) كان ذلك في عهد عبد الملك بن مروان.

إن السلف الصالح من علماء هذه الأمة وشيوخها العظام كانوا يتقللون من إطلاق حكم الكفر وغيره على أشخاص المسلمين .. لأن هذه الأحكام تستوجب استيفاء شروط وانتفاء موانع .. وتحتاج إلى إقامة حجة واضحة بينة شافية .. وغير ذلك من الشروط التى بدونها لا يمكن الحكم على شخص ما بكفر أو فسوق أو نفاق .. فلا عجب إذن أن يتحرز علماء السلف من ذلك .. بل ويبالغون فى النهى عنه كما كان يفعل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فقد قال عن نفسه «إنى ومن جالسنى، يعلم أننى من أشد الناس نهيا عن أن ينسب إلى معين (أى شخص من الأشخاص) تكفير أو تفسيق أو تبديع. حتى تقوم الحجة الرسالية التى يكون تاركها كافرًا تارة .. وفاسقًا تارة، ومبتدعًا تارة أخرى»[1].

وقد ذكر شارح كتاب العقيدة الطحاوية حديثًا قال فيه رسول الله ﷺ «من صلى صلاتنا .. واستقبل قبلتنا .. وأكل ذبيحتنا .. فهو المسلم له ما لنا وعليه ما علينا»[2]. قال شارح الطحاوية: «والمراد بقوله : استقبل قبلتنا، من يدعى الإسلام ويستقبل الكعبة. وإن كان من أهل الأهواء، أو من أهل المعاصى، ما لم يكذب بشئ مما جاء به الرسول ﷺ[3] أ.هـ.

ومن تأمل كتاب «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبى .. وهو من أعظم الكتب التى تناولت سير السلف الصالح وسطرت أخبارهم وآثارهم سيجد ذلك المعنى واضحًا وضوح الشمس فيه .. وسيرى كما كان أولئك الأخيار يتحرزون من تكفير أشخاص المسلمين أو تفسيقهم أو تبديعهم .. بل كانوا يلتمسون الأعذار للمخطئ قدر استطاعتهم، ويقيلون عثرة المذنب ما وسعهم ذلك فلم يدفعهم حرصهم على بيان الحق .. وغضبهم لانتهاك حرمة الدين أن يتعدوا على أحد أو يطعنوا فى دين أحد .. بل كانوا يهدمون الباطل من أساسه .. وينسفون الضلال نسفًا .. وكل ذلك بمزيج من الأدب الراقى والخلق الجميل .. وبلسان عفيف يتحرز من التورط فى تكفير مسلم أو تفسيقه أو تبديعه بغير حق .. وما أحوج شباب الأمة لأن يطيلوا النظر فى كتاب «سير أعلام النبلاء» .. فهو منهج تربوى متكامل يغرس فى النفوس معانى الإنصاف والعدل وعفة اللسان.

---

(١) مجموع الفتاوي.

(٢) رواه البخارى عن أنس - رضى الله عنه (٣) شرح العقيدة الطحاوية

وعمومًا يكفى أن نقول: إن تكفير أشخاص المسلمين والإكثار من وصفهم بالكفر والنفاق لم يعرف إلا عن أهل البدع والأهواء .. ولم ينتشر فى صفوف الأمة إلا بعد أن ظهر الخوارج على مسرح الأحداث فى تاريخ أمة الإسلام ..

وقد كان التكفير ومازال سلاحًا يستخدمه أهل البدع والأهواء للحكم على من خالفهم بالكفر أو الابتداع .. فهم الذين صدق فيهم قول الله عز وجل : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[1] فليرأ كل مسلم بنفسه عن التخلق بأخلاق أهل البدع والأهواء .. ولينأ عن الاتصاف بصفاتهم .. وحسبه الوقوف حيث وقف أسلافه الصالحون فى هذه المسألة .. فإنه يسعه ما وسعهم.

(١) سورة الأنعام ١٥٩ .

﴿٦﴾ لأن تخطئ فى الأسلمة خير من أن تخطىء فى التكفير

لم تعان أمة الإسلام فى تاريخها من آفة مثلما عانت من آفة تكفير المسلمين .. تلك الآفة البغيضة التى عشعشت فى عقول نفر من أبناء الأمة .. وجعلتهم يطلقون أحكام الكفر على المسلمين بغير مبرر شرعى سليم .. وقد نسى هؤلاء - أو تناسوا - أن المجازفة بتكفير المسلمين أمر خطره عظيم، وضرره جسيم، .. فإخراج مسلم من دينه، والحكم عليه بالكفر هو خلع لربقة الإسلام من عنقه .. وجزم بخلوده فى النار .. إنها مسألة صعبة عسيرة تهتز لها قلوب الصالحين .. وتقشعر من هولها أبدان المؤمنين .. وفى مثل ذلك يقول الإمام الغزالى : «والذى ينبغى الاحتراز منه التكفير ما وجد إلى ذلك سبيلاً .. فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ .. والخطأ فى ترك ألف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك دم المسلم»[١].

وصدق الإمام الغزالى رحمه الله .. فتكفير المسلم بغير حق أمر خطير .. ومسلك وعر كم زلت فيه من أقدام .. وضلت فيه من أفهام، والمعصوم من عصمه الله تعالى .. كما أنه مجازفة لا تؤمن عواقبها .. ولا تحمد مثالبها فمن ذا يستطيع لقاء ربه بحقوق امرئ مسلم قد أهدر دمه وماله وعرضه بغير حق؟! ومن ذا يرضى لنفسه الدخول تحت طائلة قول النبى ﷺ «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال، وإلا رجعت عليه»[٢].

لقد جعل النبي ﷺ اتهام المسلم بالكفر بغير حق مثل قتله .. ونظيرًا لسلب روحه من جسده، فقال محذرًا أمته من الانزلاق فى تلك الهوة السحيقة: «ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله»[٣] فأى تحذير أقوى من هذا التحذير؟! وأى إنذار أبلغ من ذلك الإنذار؟! أو ليس رمى المسلم بالكفر - وهو منه براء - يعد قتلاً أدبيًا ونفسياً له؟! ألا يعد تكفيره وصمة عار فى جبينه تلاحقه أينما حل وأينما رحل؟! ولربما ازداد الأمر خطورة إذا أتبع هذا القائل لأخيه القول بالفعل .. والرمى بالكلمات بالرمى بالرصاصات .. والرمى بالتهمة بالرمى بالرشاش.

---

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للإمام الغزالي.

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. (٣) رواه البخارى عن ثابت بن الضحاك - رضى الله عنه.

إن الأمر جد خطير .. وإن مجانبة الصواب فى تكفير أحد من المسلمين قد يترتب عليها عواقب وخيمة .. ومفاسد جمة لا يعلم مداها إلا الله تعالى .. ولربما تفاقم الخطب بحيث لا يستطيع أحد تداركه ومنع آثاره .. أرأيت لو أن خطيبًا قام فى أحد المساجد .. وأطلق حكم الكفر على أحد من المسلمين فى خطبته فماذا يكون الحال إذا تلقف هذا الحكم بعض الشباب المتحمس من الحاضرين ثم دفعتهم حماستهم للدين وحميتهم للحق إلى قتل ذلك المحكوم عليه بالكفر؟! وكيف يكون الأمر إذا تبين لاحقًا خطأ هذا الحكم، وعدم كفر ذلك الرجل؟! كأن تكون الحجة لم تقم عليه .. أو كان له تأويل سائغ فيما ذهب إليه .. أو يتبين كذب ما نسب إليه أصلاً من قول أو فعل .. فمن ذا الذى يبوء بإثم قتله؟! ومن ذا الذى يتحمل وزره يوم القيامة؟! أو ليس طلب السلامة أولى؟!

وصدق الإمام الغزالى حين قال: «القضية أن تكف لسانك عن أهل القبلة (يعنى المسلمين) ماداموا يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله. فإن التكفير فيه خطر . أما السكوت فلا خطر فيه»[1]

لقد قرر علماء الإسلام أن اليقين لا يزول بالشك ، وأن الحقائق لا تمحى بالظن .. وأن من ثبت إيمانه بيقين فلا يزول إلا بيقين مثله .. والأصل فى التعامل مع المسلم هو استصحاب الأصل الذى هو عليه وهو الإسلام ولا يصح انتفاء هذا الأصل إلا ببرهان جلى، ودليل واضح أوضح من شمس النهار .. وإذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات كما أخبرنا بذلك النبى ﷺ وذلك احترازا من ظلم امرئ مسلم، وإقامة حد من حدود الله عليه بغير حق .. رغم أن تلك الحدود أقل خطرًا ، وأيسر شأنا من الردة والكفر .. فكيف بإطلاق حكم عظيم كحكم الكفر الذى يترتب عليه إهدار الدماء واستباحة الأموال ألا يستحق الدرء بالشبهات من باب أولى؟ وهل يعقل من شريعة كالإسلام أن تأخذ الناس بالظن فى مثل هذا الحكم الخطير؟ أو أن تبنى أحكامها فيه على الشكوك والأوهام؟ ذلك أمر بعيد جدًا فى شريعة قامت بالعدل ورفعت شأن الإنصاف عاليًا.

إن المسلم التقى هو الذى يقدم الحرص على سلامة دينه .. ويكف لسانه عن إطلاق حكم الكفر على أحد من المسلمين .. فالسلامة لا يعدلها شىء ولأن يخطئ العبد فى الأسلمة خير له

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة .. الإمام الغزالي.

من أن يخطىء فى التكفير .. وذلك قياسًا على أن الخطأ فى العفو خير من الخطأ فى العقوبة .. ولأن يفلت من العدالة البشرية ألف مذنب خير من أن يعاقب برىء بدون ذنب .. وذلك تأسيسًا على أن العدالة الإلهية فى الآخرة لن يفلت منها أحد .. وما أجمل قول الإمام الشوكانى فى تفسيره :«والأدلة الدالة علي وجوب صيانة عرض المسلم واحترامه تدل بفحوى الخطاب على تجنب القدح فى دينه بأى قادح، فكيف إخراجه عن الملة الإسلامية إلى الملة الكفرية .. فإنَّ هذه جناية لا يعدلها جناية .. وجرأة لا تماثلها جرأة .. وأين هذا المجترئ على تكفير أخيه من قول رسول الله ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»[1] وقوله ﷺ : «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[2]، وقوله ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأَعراضكم عليكم حرام»[3][4] أ.هـ

فما أجدر الشباب المسلم أن يحتاط لأمر دينه .. وأن ينأى بنفسه عن التورط فى تكفير أحد من المسلمين . وعلينا جميعًا أن نترك هذا الأمر لأهله القادرين على الخوض فى لجة هذا البحر العميق .. والذى لا يجيد السباحة فيه إلا العلماء الصادقون المخلصون .. الذين تسلحوا بالعلم الصحيح .. وتجردوا من نوازع الأهواء ورغبات النفوس.

(١) متفق عليه عن ابن عمر رضى الله عنهما.

(٢) متفق عليه عن ابن مسعود رضى الله عنه.

(٣) متفق عليه عن أبى بكرة رضى الله عنه

(٤) السيل الجرار للشوكاني (٤ / ٥٨٥)، وانظر الروضة الندية لصديق حسن خان (٢/٢٩٠ ، ٢٩١)

﴿٧﴾ الإسلام يثبت بالشهادتين دون شروط زائدة

اتفق أهل السنة والجماعة على أن الدخول فى الإسلام لا يكون إلا بالشهادتين .. وتواترت نصوص الوحى وأدلة الشرع على تقرير هذه الحقيقة .. فقد ثبت عن النبى ﷺ فى كثير من الأحاديث أنه كان يقبل إسلام من ينطق بالشهادتين أو ما فى معناهما .. أو بأى لفظ يدل على الدخول فى الإسلام .. ولم يكن النبى ﷺ يسأل ذلك الداخل فى الإسلام عن أى شروط زائدة غير التلفظ بالشهادتين .. ولم يكن يطلب منه أن يقيم على إسلامه الأدلة أو البراهين .. فها هى ذى الجارية التى ورد ذكرها فى حديث معاوية بن الحكم السلمى .. وحكم لها النبي ﷺ بالإيمان بعد أن سألها أين الله؟ قالت فى السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله فقال النبي ﷺ اعتقها فإنها مؤمنة[1] .. فلم يسألها النبي ﷺ عن أي شروط زائدة .. ولم يكلفها بإقامة أى أدلة أو براهين .. ولم يختبرها فى مسائل التوحيد كالحكم والولاء والنسك وإنما حكم لها بالإيمان بمجرد إقرارها بالشهادتين .. وتكرر ذلك الأمر مرارًا فى سيرة النبى ﷺ حتى بات واضحًا لكل ذى عينين.

فعن أبى هريرة- رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقها، وحسابه على الله)[2] وهذا حديث صحيح صريح فى ثبوت حكم الإسلام لمن تلفظ بالشهادتين، وحقه فى إجراء أحكام الإسلام عليه .. قال الإمام النووى تعليقًا على هذا الحديث .. «وفيه صيانة مال من أتى بكلمة التوحيد ونفسه، ولو كان عند السيف»[3] .. وروى الإمام مسلم أن عائشة - رضى الله عنها- قالت: انطلق النبى ﷺ تجاه مكة حتى نزل بشجرة ، فجاءه رجل يذكر منه نجدة وغيرة، فقال: جئت أقاتل وأصيب معك .. فقال النبي ﷺ :أتشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله؟ قال: لا، قال: ارجع فلن أستعين بمشرك على مشرك.. فانطلق حتى إذا كان بحمة الوبرة أتاه الرجل

---

(١) رواه مسلم وأبو داود عن معاوية بن الحكم - رضى الله عنه

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(٣) شرح صحيح مسلم (٢٤٤/١) ط . دار الحديث القاهرة.

فقال: مثل ما قال أول مرة، فقال النبى ﷺ: أتشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله؟ قال نعم، قال: «الحق بإخوانك»[1] .. فانظر كيف أثبت له النبى ﷺ - الإسلام وأخوة الإيمان بمجرد قوله: نعم، والتى يفهم منها إقراره بالشهادتين .. ثم ألحقه مباشرة بركب المجاهدين، ولم ينقل أنه ﷺ - سأله عن أى شروط، أو اختبره فى أى مسائل أو قضايا.

ومثل ذلك حديث أسامة بن زيد - رضى الله عنه - حين قتل رجلاً فى المعركة بعد أن علاه بالسيف فقال الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله فلما بلغ ذلك النبى ﷺ - عنفه تعنيفًا شديدًا، وقال له: فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة، يقول أسامة: حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم، وذلك من شدة توبيخ النبى - ﷺ - له على صنيعه .. ويعلق الإمام ابن رجب الحنبلى - رحمه الله - على هذا الحديث قائلاً: (ومن المعلوم بالضرورة أن النبى - ﷺ - كان يقبل من كل من جاءه يريد الدخول فى الإسلام الشهادتين فقط ويعصم دمه بذلك، ويجعله مسلمًا، فقد أنكر على أسامة بن زيد قتله لمن قال: لا إله إلا الله لما رفع عليه السيف، واشتد نكيره عليه.[2].

كل تلك الشواهد السابقة تؤكد لنا بوضوح أن النطق بالشهادتين كافٍ لثبوت إسلام صاحبه فى الدنيا دون أى شروط زائدة .. وما أجمل قول شيخ الإسلام ابن تيمية وهو يلخص لنا هذه الحقيقة فيقول: وقد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة، أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .فبذلك يصير الكافر مسلمًا والعدو وليًا، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال .. ثم إن كان ذلك من قلبه، فقد دخل فى الإيمان .. وإن قال بلسانه دون قلبه فهو فى ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان)[3].

وهنا يثور تساؤل مهم: إذا كان النطق بالشهادتين كافيًا لإثبات حكم الإسلام الظاهر لصاحبه، وعصمة دمه وماله .. فما معنى تلك الشروط السبعة[4] التى وضعها العلماء لكلمة التوحيد، وأخبروا أن كلمة لا إله إلا الله لا تنفع صاحبها بغير استكماله لتلك الشروط؟

(١) رواه مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها. (٢) جامع العلوم والحكم.

(٣) نقلا عن فتح المجيد. باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

(٤) هذه الشروط هى: العلم، اليقين، القبول، الانقياد، الصدق، الإخلاص، المحبة، وجمعها حافظ حكمى فى منظومته فقال: العلم واليقين والقبول .. والانقياد فادر ما أقول .. والصدق والإخلاص والمحبة .. وفقك الله لما أحبه.

والحقيقة أن هذه المسألة من المسائل الهامة الدقيقة، والتى تحتاج إلى مزيد توضيح وبيان فقد اضطرب بعض الشباب فى فهم هذه الشروط، وإدراك المقصود منها، فجعلوها محلاً لاختبار أهل الإسلام فى دينهم .. واعتبروها شروطًا لصحة إسلام الناس فى الدنيا وإجراء أحكام الدين عليهم، فخالفوا بذلك هدى النبى - ﷺ - الذى كان يكتفى بالنطق بالشهادتين لإثبات عقد الإسلام لصاحبه، ولم يكن يسأله عن أى شروط أخرى غير ذلك.

وللإجابة عن ذلك التساؤل السابق نقول: إن شروط لا إله إلا الله السبعة والتى وضعها العلماء فى كتبهم ليست شروطًا فى قبول الإسلام الظاهر فى الدنيا .. كما أنها لا تصلح معيارًا لاختبار الناس فى صدق إسلامهم .. وإنما هى شروط فى انتفاع المسلم بكلمة التوحيد فى الآخرة لا فى الدنيا - وليس لها أى علاقة بإجراء أحكام الإسلام الظاهر فى الدنيا ، والذى هو منوط بالنطق بالشهادتين .. فمن أتى بأصل هذه الشروط يوم القيامة، وتحقق فى قلبه أصل العلم واليقين والإخلاص والصدق وغيرها نجا من الخلود فى النار وكان من أهل الجنة .. ثم هو يرتقى بعد ذلك فى درجات الجنة بحسب درجة تحققه بهذه الشروط زيادة ونقصانًا .. ومن هنا يتفاوت الناس فى الدرجات يوم القيامة بحسب درجة إتيانهم بهذه الشروط فمستقل ومستكثر.

ومن تتبع أدلة الشرع التى استقرأ العلماء منها هذه الشروط فلن يعجز عن ملاحظة هذه الحقيقة السابقة من أن محل الانتفاع بهذه الشروط إنما هو فى الآخرة لا فى الدنيا .. فقد استقرأ العلماء شرط الصدق مثلاً من قوله - ﷺ :- ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار»[1] أما شرط اليقين فمن قوله - ﷺ -: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة[2] وشرط الإخلاص من حديث النبى - ﷺ -:«فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله»[3]، وهكذا بالنسبة لباقى الشروط - وتأمل فى الأحاديث السابقة قوله - ﷺ - مرة

(١) رواه البخارى ومسلم عن معاذ رضى الله عنه.

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه.

(٣) رواه البخارى ومسلم عن عتبان بن مالك - رضى الله عنه.

(حرمه الله على النار) ومرة (دخل الجنة) ومرة (حرمه على النار) ستجد أن النبى - ﷺ - علق الانتفاع بهذه الشروط على الآخرة .. وهذه ملاحظة أولى على تلك الشروط السبعة.

أما الملاحظة الثانية: فهى أن هذه الشروط هى فى معظمها - إن لم تكن كلها - قلبية ولا يملك الاطلاع على القلوب إلا الله - عز وجل - فكيف يصلح أمر قلبى أن يكون معيارًا للحكم على صحة إسلام الناس؟! .. وأما ما كان متعلقًا بالظاهر من هذه الشروط كالأعمال والأقوال الظاهرة، فلا يصلح أيضا ليكون معيارًا للحكم على صحة الإسلام وثبوت أصله .. إذ أن انتفاء الأعمال الظاهرة هو دليل ضعف الإيمان الشديد لا على ذهاب الإيمان بالكلية[1].

والملاحظة الثالثة : هى أن المراد من هذه الشروط - كما ذكر العلماء - أن يتخلق بها المسلم وأن تكون موفورة في قلبه .. وليس لزامًا عليه أن يحفظها أو يعد ألفاظها ويعرفها بلسانه .. فالمقصود أن يعرفها بقلبه، ويلتزمها فى نفسه .. وفى ذلك المعنى قول الشيخ حافظ الحكمى صاحب كتاب معارج القبول: (ومعنى استكمالها - أى الشروط السبعة - اجتماعها فى العبد، والتزامه إياها بدون مناقضة منه لشىء منها .. وليس المراد من ذلك عد ألفاظها، وحفظها .. فكم من عامىّ اجتمعت فيه والتزمها ولو قيل له: اعددها، لم يحسن ذلك .. وكم حافظ ألفاظها يجرى فيها كالسهم، وتراه يقع كثيرًا فيما يناقضها ، والتوفيق بيد الله، والله المستعان)[2].. وصدق والله هذا العالم .. فها هم أولاء أمهاتنا وعوام بلادنا من العجائز والمسنين إذا تحدثت إليهم ورأيت أحوالهم وجدت قلوبهم تفيض ثقة بالله وتوكلاً عليه، ويقينًا فيما عنده، وغير ذلك من المعانى الإيمانية القلبية، ولو سألت أحدهم عن معنى اليقين أو التوكل لم يحسن التعبير عنه والإفصاح عن معناه الذى امتلأ به قلبه .. فى حين تجد البعض من الفلاسفة مثلاً أو أهل الكلام يتفنن فى تعريف هذه المعانى ويتشدق لسانه بها، وربما لم يذق قلبه طعمها يومًا ولم يشم لها رائحة.

ويتبين من كل ما سبق أن شروط لا إله إلا الله إنما تنفع صاحبها يوم القيامة فتنجيه من النيران وترفعه فى درجات الجنان .. أما فى الدنيا، فالنطق بالشهادتين هو باب الدخول فى الإسلام ..

---

(١) ويستثنى من هذه الأعمال ترك أركان الإسلام .. ماعدا الشهادتين ففى تكفير تارك أركان الإسلام الأربعة خلاف سائغ بين أهل السنة والجماعة .. وسيأتي مزيد تفصيل لهذه النقطة فى مقدمة مستقلة.

(٢) معارج القبول جـ ١ ص ٣٢٧ ط. دار الحديث - القاهرة

وليس لأحد من الناس كائنًا من كان أن يحكم بعد ذلك بكفر من أقر بهما، ولم يصدر منه ما ينقضهما أو ينقض أحدهما.

ولعل مغزى اكتفاء الشريعة بالشهادتين لدخول الإسلام هو أن شهادة أن لا إله إلا الله فى حد ذاتها تنقض جميع التصورات والاعتقادات الباطلة عن الله - عز وجل - فى ربوبيته وأولوهيته وفى أسمائه وصفاته .. فيكون النطق بها بمثابة إعلان براءة من جميع الاعتقادات الباطلة حول الله سبحانه وتعالى .. وكذلك الحال بالنسبة لشهادة أن محمدًا رسول الله فلا عجب إذن أن جعلت الشريعة النطق بالشهادتين هو مفتاح الدخول فى دين الإسلام.

﴿٨﴾ ترك واجبات الدين .. عصيان لا كفران

كان اختلاف الناس قديماً وحديثًا فى حقيقة الإيمان سببًا فى ظهور بعض الفرق التى تبنت بدعة تكفير المسلمين .. فقد ثار التساؤل حول حقيقة الإيمان، وعلاقته بالعمل (أى أداء واجبات الدين أو تركها) .. وتعددت الإجابات حول أسئلة من قبيل: هل الإيمان حقيقة كلية لا تتجزأ؟أم أنه يزيد وينقص، ويتفاوت قدره فى قلوب الناس؟ وما هو الحد الأدنى من الإيمان، والذى يثبت به إسلام صاحبه؟

فمن قائل: إن الإيمان كل لا يتجزأ، والعمل جزء من حقيقته .. وبالتالى لو أن مسلمًا ترك شيئًا من الواجبات، فقد ضاع إيمانه بالكلية .. ودخل فى دائرة الكفر .. وهذا قول الخوارج الذين يكفرون أهل الإسلام بترك أى واجب من الواجبات ولا يخفى ما فى هذا القول من غلو واضح يأباه منطق الإسلام وعدله ورحمته.

ومن قائل: إن الإيمان كل لا يتجزأ، والعمل خارج عنه ومنفصل تمامًا عن حقيقته وبالتالى لو أن مسلمًا زنى أو سرق أو أكل الربا أو ترك فرائض الدين فهو مؤمن كامل الإيمان وهذا قول المرجئة الذين يرفعون شعار: (إيمان أفسق الفاسقين كإيمان الأنبياء والمرسلين) وهو قول باطل وضلال مبين يرفضه كل ذى عقل سديد وقلب سليم.

وبين هؤلاء ، وأولئك هدى الله علماء السلف وأهل السنة لما اختلف الناس فيه من الحق بإذنه .. فقالوا : الإيمان هو الاعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالجوارح والأركان .. والإيمان حقيقة متفاوتة يزيد وينقص فى قلوب المؤمنين .. يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .. والأعمال شرط فى كمال الإيمان لا فى صحته .. فمن قصر أو تهاون فى أداء الواجبات الشرعية .. فلا نقول إنه كافر، ولا نقول إنه مؤمن كامل الإيمان .. ولكن نقول إنه مؤمن ناقص الإيمان .. بحسب ما ترك من الواجبات[١].

---

(١) راجع اعتقاد أهل السنة والجماعة فى كتب السلف المعروفة مثل : الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية – شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفى. معارج القبول لحافظ الحكمى

وهذا البيان الناصع الذى قرره سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين هو أصدق تعبير عن عظمة الإسلام .. ورعايته لطبيعة النفس البشرية التى جبلت على النقص وفطرت على القصور والخطأ. فالمسلم بشر ليس معصومًا .. ويتصور فى حقه القصور والتهاون والتفريط .. فلو أن الإسلام جعل كل من يترك شيئًا من فرائضه كافرًا، لما بقى مسلم على وجه الأرض .. فمن من المسلمين - مهما كان ورعه وتقواه - يأتى جميع الواجبات وينتهى عن جميع المعاصى والذنوب والمخالفات؟!

وقد ضرب القرآن مثلاً بديعًا لشجرة الإيمان فى قلب المؤمن .. وهذا المثل - لمن تأمله - يؤكد ما ذكرناه من أن ترك شيء من الواجبات ينقص الإيمان ولا ينقضه .. يقول تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كل حين بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.. فشبه القرآن الإيمان بشجرة أصلها ضارب بجذوره فى أرض القلب .. وفروعها التى تحمل الأوراق والثمار من أعمال الإيمان وأقواله باسقة فى السماء .. فتبين لنا أن للإيمان أصلاً يزول عن المسلم وصف الإسلام بزواله .. وفرع لا يزول بغيابه اسم الإيمان والإسلام، ولكن يكون إيمان صاحبه ناقصًا .. فهل أعمال الإسلام من الواجبات الشرعية داخلة فى أصل الإيمان أم فى فرعه؟ وهل ترك هذه الأعمال يذهب بأصل الإيمان بالكلية، أم يكون سببًا فى نقصان كماله؟ .. ويجيبنا الإمام ابن حزم - رحمه الله - بقوله (... فأما الإيمان الذى يكون الكفر ضدًا له، فهو العقد بالقلب (أى اعتقاد التوحيد)، والإقرار باللسان (أى النطق بالشهادتين) فإن الكفر ضد لهذا الإيمان .. وأما الإيمان الذى يكون الفسق ضدًا له - لا الكفر - فهو ما كان من الأعمال فرضًا، فإن تركه (أى ترك الواجبات الشرعية) ضد للعمل، وهو فسق لا كفر»[1].

إذن فقد تقرر أن المسلم لا يكفر بترك شيء من الواجبات مادام مقرًا بالتوحيد بقلبه، وناطقًا للشهادتين بلسانه .. ومادام فى تركه لهذه الواجبات غير جاحد لوجوبها ولا مستحل لتركها .. وعلى هذا اتفق علماء أهل السنة قديمًا وحديثًا ولم يختلف فى ذلك إلا ما ورد في خلافهم فيمن ترك مبانى الإسلام الأربعة (وهى الصلاة والصوم والزكاة والحج) حيث حكم بعضهم بكفره، ولكن

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل (٣ / ١١٨ / ١١٩) ط. مكتبة السلام العالمية

جمهورهم على عدم تكفير تارك أى عمل من أعمال الإسلام مادام غير مستحل لتركه ولا جاحد لوجوبه .. وهذا هو الرأى الراجح فى المسألة.

وقد يسأل سائل ويقول: كيف يكفر من ترك القول :(أى النطق بالشهادتين) بينما لا يحكم بكفر من ترك العمل؟! أو ليس تارك العمل أولى بالكفر من تارك القول؟ ويجيب الإمام ابن حزم عن ذلك فيقول: (... وإنما لم يكفر من ترك العمل (أى الواجبات) وكفر من ترك القول (أى الشهادتين) لأن رسول الله ﷺ - حكم بالكفر على من أبى القول وإن كان عالمًا بصحة الإيمان بقلبه، وحكم بالخروج من النار لمن آمن بقلبه وقال بلسانه، وإن لم يعمل خيرًا قط»[1].

وبتطبيق هذه القاعدة على أرض الواقع يمكننا أن نقول ما يلى:

- تارك الصلاة - علي الراجح من أقوال أهل العلم - لا يكفر إذا تركها كسلاً أو تهاونًا ، مادام مقرًا بوجوبها، وغير مستحل لتركها.

- وكذلك تارك الزكاة والصيام والحج لا يكفر إلا إذا استحل ترك هذه الواجبات أو كان جاحدًا لوجوبها.

- والحكم بما أنزل الله واجب من الواجبات الشرعية - لا على الحكام فحسب ، بل على كل راع ولاه الله أمر أحد من الناس - وتارك الحكم بما أنزل الله لا يكفر بتركه هذا الواجب إلا إذا كان جاحدًا لوجوبه أو مستحلاً لتركه .. أما لو ترك الحكم بما أنزل الله بين رعيته كسلاً أو تهاونًا وهو مقر بوجوب هذا الحكم فهو عاصٍ وليس بكافر وعلى ذلك تظاهرت أقوال أهل العلم من المفسرين والفقهاء.

قال ابن عباس - رضى الله عنه - فى تفسير قوله تعالى .. «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»[2] ومن جحد ما أنزل الله فقد كفر .. ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق » وقال أيضًا «ليس بالكفر الذى تذهبون إليه، وقال ابن طاووس.. «وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله».

---

(١) قراءة نقدية والرد، د. ياسر برهامى ص ٣٤ نقلاً عن كتاب «الدرة فيما يجب اعتقاده لابن حزم».

(٢) انظر هذه الأقوال فى تفسير ابن كثير (٨٨/٣) ط. المكتبة التوفيقية.

وقال الإمام العز بن عبد السلام: من لم يحكم به جاحدًا كفر .. وإن كان غير جاحد ظلم وفسق».

وقال الإمام القرطبى فى تفسيره: «.. أى ومن لم يحكم بما أنزل الله ردًا للقرآن وجحدًا لقول الرسول - ﷺ - فهو كافر .. قاله ابن عباس ومجاهد»..

وقال الإمام ابن حزم - رحمه الله - «الحكم عمل من الأعمال . فإن كان الحاكم يجحد حكم الله فقد كفر، حتى ولو لم ينفذ الحكم بغير ما أنزل الله .. وإن كان منفذًا فقط للأمر المخالف، أو أمر بتنفيذ الحكم علي خلاف حكم الله - ولكنه لم يجحد حكم الله - فهو من العصاة ولا يعد مرتداً عن الإسلام[1].

وهذه الأقوال جميعها تؤكد أن مجرد الحكم بغير ما أنزل الله لا يعد كفرًا من فاعله - رغم أنه ترك لواجب من واجبات الدين - إلا إذا اقترن بهذا الفعل جحود لوجوب الحكم بما أنزل الله، أو استحلال لتركه .. ولعل الدافع إلى الاستطراد فى هذه النقطه هو ظن البعض أن أى حكم بغير ما أنزل الله هو كفر، والحاكم به كافر حتى وإن لم يقترن به جحود ولا استحلال .. ولو كان ذلك صحيحًا لدخل كثير من المسلمين تحت طائلة الكفر .. فكثير من مسلمى اليوم لا يحكمون ببعض ما شرع الله تعالى فى أسرهم وبيوتهم وأماكن عملهم، ويحيدون عن شرع الله فى قليل أو كثير من أمور حياتهم[2].. وذلك مع قدرتهم على تحكيم شرع الله فى هذه الأمور، وعدم عجزهم عن ذلك ولكنهم عدلوا عنه إما تكاسلاً، أو اتباعًا للهوى، أو تغليبًا لمصالح دنيوية .. إلخ. ولم يفعلوا ذلك جحودًا منهم لشريعة الإسلام، ولا استحلالاً لتركها .. فلم يقل أحد من علماء الأمة الثقات فى عصرنا هذا بكفرهم - لسبب بسيط هو أن هذا الفعل منهم معصية، وأن أهل الإسلام لا يكفرون بالمعاصى .. ولو كان تركهم للحكم بشريعة الإسلام جحودًا لوجوبها أو استحلالا لتركها لكان هذا الفعل كفرًا أكبر مخرجًا من ملة الإسلام.

(١) الإحكام في أصول الأحكام (٤٩/١).

(٢) شاع فى كثير من القرى والأرياف ظاهرة منع الإناث من إرثهم، وفى هذا مخالفة صريحة لشرع الله .. كما أن كثيرًا من الأسر تمنع بناتها أحيانًا من ارتداء الحجاب حتى لا يعوقها عن الزواج وهذا أيضًا انحراف عن شرع الله .. ولكن هذه المخالفات لم يقم أصحابها جحودًا لشرع الله أو استحلالاً لتركه .. وإنما لهوى فى النفوس .. لذلك لم يقل أحد من علماء الإسلام الثقات بكفرهم.

وغنى عن الذكر أن القول بعدم كفر من يترك شيئًا من الواجبات ليس معناه أن هذا الترك لا يضر بدينه .. ولا يقدح فى كمال إيمانه .. أو أنه مع تركه لذلك الواجب مؤمن كامل الإيمان .. حاشا وكلا، فهذا الترك حتمًا ينقص من إيمان صاحبه بقدر ما ترك من واجبات الدين، بل إن تركه لشىء من الواجبات هو فى حد ذاته معصية قد ترقى إلى مرتبة الكبائر .. ولكنها لا تكون كفرًا بحال من الأحوال إلا إذا استحل ترك ذلك الواجب أو كان جاحدًا لوجوبه .. وعلي هذا استقرت عقيدة أهل السنة والجماعة .. فلله ما أعظم شريعة الإسلام .. تلك الشريعة الربانية العادلة .. والتى شرفها المولى - عز وجل - بأن جعلها وسطًا بين الشرائع .. ووضع عن أتباعها الآصار والأغلال التى حملت على من كان قبلهم.

﴿٩﴾ وإن زنى وإن سرق .. رغم أنف أبى ذر

كانت مسألة تكفير المسلمين بالذنوب والمعاصى هي حجر الزاوية فى فكر أهل التكفير قديمًا من الخوارج وغيرهم .. ولا زالت تلك المسألة هى الأساس الذى ينطلق من خلاله الكثيرون ممن زلت أقدامهم فى هوة التكفير حديثًا .. فالذين يكفرون المسلمين بالمعاصى والكبائر لا تتصور نفوسهم التسامح مع العصاة والمذنبين.. ولا تقبل عقولهم أن يدخل الجنة صاحب كبيرة من الكبائر .. ولاسيما إن كان مصرًا عليها .. ومقيمًا على فعلها .. وهذه النظرة الغير متسامحة مع أصحاب الكبائر والذنوب قد تنشأ أساسًا من غيرة شديدة على الدين .. ومن تعظيم شديد لقدر الله عز وجل .. ولكن مع غياب التصور الصحيح لحقيقة الإيمان .. وعدم التفريق بين ما ينقص كمال هذا الإيمان، وبين ما ينقضه من أساسه.

إن الفرق بين نواقص الإيمان ونواقض الإيمان هو فرق إملائى بسيط .. فهو تلك النقطة اليتيمة فوق حرف الصاد .. ولكن الخطأ فى الوضع الصحيح لهذه النقطة ينعكس آثارًا وخيمة فى الواقع والتفكير .. لقد قررت الشريعة بنصوصها المتواترة أن الكبائر والذنوب لا تنقض إيمان صاحبها بالكلية .. ولكنها تنقص من كمال إيمانه بقدرها .. كما أن المعاصى مهما عظمت لا تحجب صاحبها عن الجنة ولا تحكم له بالخلود فى النار .. حتى ولو مات مصرًا على فعلها .. فهو حينئذ فى مشيئة الله عز وجل إن شاء عفا عنه وهو الغفور الرحيم .. وإن شاء عذبه بها وهو العزيز الحكيم .. ثم يخرج من النار طاهرًا مطهرًا إلى الجنة .. وذلك مادام قد لقى ربه على التوحيد لا يشرك به شيئًا.

روى البخارى ومسلم عن أبى ذر رضى الله عنه أن النبي - ﷺ - قال: أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، قلت (يعنى أبا ذر) وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق .. فكررها ثلاثًا، حتى قال فى الثالثة: على رغم أنف أبى ذر»[1]

فهذا أبو ذر رضى الله عنه، قد ظن أن الكبائر تحول دون دخول صاحبها الجنة حتى ولو أتى بالتوحيد .. ولكن النبى ﷺ بين له خطأ هذا الظن .. ويؤكد له ثلاث مرات أن من مات على

---

(١) متفق عليه من حديث أبى - ذرّ رضى الله عنه.

التوحيد دخل الجنة وإن أصاب من المعاصى والذنوب ما أصاب .. فإن كان ممن عصمهم الله تعالى من اقتراف الكبائر فهو فى أول الداخلين .. وإن مات مصراً على كبيرة منها فهو فى مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه بقدر ما يتطهر من ذنوبه ثم أدخله الجنة .. فإن القلب إذا استنار بنور التوحيد .. وأشرق الإيمان فى أركانه .. فمحال أن يخرج من دائرة الإسلام .. أو أن يحكم على صاحبه بالخلود في النار مهما اقترف من المعاصى أو ارتكب من الذنوب.

وقد روى البخارى فى هذا المعنى عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وفى قلبه وزن شعيرة من خير .. ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير»[١].

وتأمل بقلبك هذا الموقف النبوى الكريم .. والذى يؤكد فيه ﷺ أن الكبائر لا تنقض إيمان صاحبها ولا تؤدى إلى زواله بالكلية .. بل قد يجتمع فى قلب ذلك العاصى مع ارتكابه لكبيرته شئ من محبة الله ورسوله .. فقد روى البخارى عن عمر بن الخطاب «رضى الله عنه» أن رجلاً على عهد النبى ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب (حمارًا)، وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان النبى ﷺ قد جلده فى الشراب (أى إدمان شرب الخمر) .. فأتى به يومًا فجلده .. فقال رجل من القوم: «اللهم العنه .. ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبى ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله»[٢] .. فما أعظم هذه الرحمة المهداة، وما أرقى ذلك الأدب النبوى الكريم .. وفى هذا الحديث دلالة على أن الكبائر لا تخرج صاحبها من الإسلام .. وأن ارتكاب النهى لا يعنى غياب محبة الله ورسوله من قلب العاصى فى جميع الأحيان .. وهذا الحديث يفسر لنا المقصود من نفى الإيمان فى قوله ﷺ فى حديث آخر: «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[٣] فالمقصود من النفى هنا نفى كمال الإيمان لا نفى وجوده وأصله .. فما أجدر الشباب المسلم بأن يقتدى بأخلاق المصطفى ﷺ .. فلا يطلق لسانه فى أحد من أهل الكبائر من المسلمين بحجة أنه فاسق، وأنه لا

(١) رواه البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه.

(٢) رواه البخارى عن أسلم مولى عمر رضى الله عنه

(٣) رواه البخارى ومسلم عن ابن عمرو رضى الله عنهما.

غيبة لفاسق .. فلربما كان هذا العاصى محبًا لله ورسوله أو كان له من الطاعات الخفية والحسنات المستورة ما تطيش أمامه كل تلك الذنوب.

لقد أثبت القرآن صفة الإسلام والإيمان لأهل الكبائر والذنوب .. ولم يجعل قيامهم بتلك المعاصى سبيلا إلى نزع الإيمان عنهم، فقال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾[1] فأثبت لهم الإيمان مع قتال بعضهم بعضًا .. ومعلوم أن قتال المسلم من الكبائر، بل سماه النبى ﷺ فى بعض حديثه كفرًا، تغليظاً له، ومبالغة فى التنفير منه، فقال: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[2] ومع ذلك لم يحل ذلك القتال دون وصفهم بصفة الإسلام والإيمان .. فمن قال بكفر من قاتل المسلمين وهو كبيرة من الكبائر فقد ناقض صريح القرآن وخالف صريح السنة النبوية .. وقد يجره القول بذلك إلى تكفير صحابة النبى ﷺ الكرام الذين وقع القتال بينهم من أمثال على ومعاوية وطلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة رضى الله عنهم جميعًا وكلهم مبشرون بالجنة .. فهل يقول بذلك عاقل؟ فضلا عن مسلم صحيح الإسلام؟!

ألم يقل النبى ﷺ عن الحسن بن على رضى الله عنهما إن ابنى هذا سيد، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين[3] .فلم يقل ﷺ : بين فئة مسلمة وأخرى كافرة، أو بين فئتين كافرتين .. وإنما أثبت الإسلام لكل منهما رغم اقتتالهم الذى هو من كبائر الذنوب.

إن القول بتكفير المسلمين بالذنوب والمعاصى .. فضلا عن مجافاته للشرع الحنيف نصًا وروحًا .. فهو مخالف لأبسط قواعد العقل والواقع .. فلو أن الذنوب والمعاصى تكفر المسلم وتخرجه من الإسلام، لما بقى على وجه الأرض مسلم .. ولخرج جميع المسلمين من دينهم .. فهل هناك مسلم لم يكذب فى حياته قط، أو لم يغتب أحدًا من المسلمين؟! .. وهل هناك مسلم لم يخلف الوعد مرة؟! .. أو لم يخن الأمانة يومًا؟! .. بل إن أصحاب هذا القول أنفسهم ممن يكفرون الناس

---

(١) سورة الحجرات.

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود رضى الله عنه

(٣) رواه البخارى عن أبى بكر رضى الله عنه.

بالمعصية لا يخلو أحدهم من الوقوع فى الذنوب والمعاصى .. إذ لا عصمة لأحد من البشر اللهم إلا أنبياء الله ورسله .. فتجد هؤلاء كلما عصى أحدهم أو أذنب ذنبًا قام فاغتسل ونطق بالشهادتين، ولربما تكرر ذلك منه فى اليوم الواحد مرات ومرات .. فأى عقل وأى رشد ذلك الذى يدعو صاحبه لمثل هذه الأفعال؟!

إن أخطر ما فى تلك الدعوى الآثمة - تكفير المسلمين بالمعصية - أنها لا تقتصر على تكفير عوام المسلمين وخواصهم فحسب .. بل إنها تتعداهم لما هو أبعد من ذلك .. وقد تصل بصاحبها إلى تكفير الصحابة الأجلاء .. بل إلى تكفير الأنبياء والمرسلين والعياذ بالله .. ألم يقل الله - عز وجل - فى كتابه :«وعصى آدم ربه فغوى»[1] .. فهل كفر آدم عليه السلام حين أزله الشيطان فأكل من الشجرة؟! .. وهل كفر نبى الله يونس عليه السلام حين عصى ربه وترك دعوة قومه بدون إذن من الله تعالى؟!.. لا يقول بهذا عاقل.

ونختم بذلك القول الرائع للإمام النووى - رحمه الله - والذى يلخص فيه مذهب أهل السنة فى تلك المسألة حيث يقول: «واعلم أن مذهب أهل الحق من السلف والخلف أن من مات موحدًا دخل الجنة قطعًا على كل حال .. وأما من كانت له معصية كبيرة ومات من غير توبة فهو فى مشيئة الله تعالى، فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة أولاً وجعله كالقسم الأول، وإن شاء عذبه القدر الذى يريده سبحانه وتعالى، ثم يدخله الجنة، فلا يخلد فى النار أحد مات على التوحيد ولو عمل من المعاصى ما عمل، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من البر ما عمل .. هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق فى هذه المسألة»[2].

(١) سورة طه (١٢١)

(٢) شرح صحيح مسلم للنووى (١/١٩٢)

﴿١٠﴾ شريعة الرحمن .. لا مؤاخذة بغير علم

ليس أحد أحب إليه العذر من الله .. ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب .. وبعث أنبياءه مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .. فرحمته الواسعة تأبى أن تعاقب أحدًا بما يجهل .. وحكمه العادل يتنزه عن مؤاخذة شخص بشئ لم يبلغ ولم يحط به علمًا .. ولما كان الله عز وجل - وهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين - ليعاجل بعقوبته قومًا لم تبلغهم دعوة الرسل .. ولم يصل إلى مسامعهم إعذار ولا إنذار .. فهذا يتناقض مع واسع رحمته التى سبقت غضبه ووسعت جميع خلقه.

وإذا كانت تلك هى صفات المولى تبارك وتعالى .. فما بال أقوام لا تنهض نفوسهم للاتصاف بهذه الصفات .. ولا ترنو أبصارهم للتخلق بما يحبه الله ويرضاه من الأخلاق .. فإذا بهم أقل حبًا للعذر من خالقهم ومولاهم .. وأشح نفوسًا برحمة الله الواسعة على خلق الله عز وجل .. وصدق المولى حين قال : ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذاً لأَّمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانَ قَتُوراً﴾[1]

إن العذر بالجهل[2] فى أمور التوحيد ومسائل الاعتقاد، هو مظهر من مظاهر رحمة الله بعباده .. وجانب من جوانب عدله، وحكمته .. فليس من المقبول شرعًا ولا عقلاً أن يعاقب إنسان على شىء لم يبلغه، أو يؤاخذ بأمر لم يصل إليه علمه .. ولو كان ذلك مقبولاً لما أرسل الله تعالى رسله إلى الخلق تترى .. ولما أنزل عليهم كتبًا يقرأونها .. ولاكتفى سبحانه بما فطر عليه خلقه من فطرة التوحيد والإيمان .. أو بما ركب لهم من عقول تميل بطبعها إلى الخير والحق والعدل، وتؤثره عما سواه

---

(١) سورة الإسراء آية ١٠٠

(٢) المقصود بالجهل هنا ليس عدم إتقان القراءة والكتابة أو عدم العلم بأمور الحياة .. وإنما هول الجهل ببعض المسائل الشرعية والأمور الاعتقادية .. وهذه المسائل لا يقتصر الجهل بها على عوام المسلمين فحسب - بل قد يجهلها بعض المتخصصين فى العلوم الدنيوية كالأطباء والمهندسين والسياسيين وغيرهم، وهؤلاء جميعًا ينطبق عليهم مبدأ العذر بالجهل كما ينطبق على غيرهم من عوام المسلمين.

.. ولكنه سبحانه لم يجعل من كل ذلك حجة يؤاخذ بها الخلق .. بل جعل رسله وأنبياءه هم الحجة البالغة الواضحة، كما قال سبحانه فى كتابه: «رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» .. ومبالغة فى إعذار خلقه لم يجعل أمة بغير رسول، «وإن من أمة إلاخلا فيها نذير» فتوالت أنبياء الله ورسله كل على إثر أخيه وصاحبه .. ينبهون الخلق إلى حجج الله .. وينذرونهم عذابه يوم القيامة .. ولئلا يقول أحد من الناس : «ما جاءنا من بشير ولا نذير».

وقد تواترت نصوص القرآن والسنة لتقرير مسألة العذر بالجهل فى أصول الدين وفروعه .. وتأكيد كون الجاهل معذورًا بجهله إذا وقع فيما تعتبره الشريعة فعلاً من أفعال الكفر .. أو غاب عن علمه تفاصيل ما ينبغى أن يعلمه المسلم .. وهذا العذر بالجهل لا يعفى صاحبه من إثم التقصير فى تحصيل العلم الشرعى الصحيح – وخاصة فيما لا يسع المسلم جهله . ولكنه يمنع من إطلاق وصف الكفر عليه إذا أتى ما يستوجب التكفير مادام جاهلاً به .. وهكذا كانت عقيدة السلف الصالح رضوان الله عليهم .. وهو أيضًا عين ما نطقت به آيات القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ﷺ.

يقول المولى عز وجل مؤكدًا هذه المسألة : ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ .. فانظر كيف جعل المولى عز وجل استحقاق العقاب لمن يشاقق رسوله ﷺ ويتبع غير سبيل المؤمنين مشروطًا بتبين الهدى وظهور الحق لصاحبه .. وكأنه يقول سبحانه إن من يشاقق الرسول، ويتبع غير سبيل المؤمنين من قبل أن يتبين له الهدى والحق، فإنه لا يكون حينئذ مستحقًا للعقوبة، حتى يتبين له الحق فى هذه المسأله..

وهذا الإمام ابن كثير رحمه الله يزيد المعنى وضوحًا .. ويقول فى تفسير هذه الآيه: «أى: ومن سلك غير طريق الشريعة التى جاء بها الرسول ﷺ فصار فى شق، والشرع فى شق .. وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق وتبين له، واتضح له[1]. فتأمل تلك القيود المتتابعة التى وضعها ابن كثير لكى يستحق المشاقق العقوبة إذ لا يكفى مجرد مخالفته للنبى ﷺ .. بل لابد أن تكون هذه

(١) تفسير ابن كثير (٣٠٣/٢) ط. المكتبة التوفيقية.

المخالفة عن عمد منه وقصد .. وأن تكون بعد بيان الحق له ووضوحه له .. وظهوره له .. فهل يستقيم القول بعد ذلك بأن الجاهل مستحق للعقوبة؟! وتأمل أيضًا كيف كرر ابن كثير لفظ «له» ثلاث مرات فى قوله «بعد ما ظهر له الحق، وتبين له .. واتضح له «ومن قبل ذكرته الآيه الكريمة .. وهذا يدل على ضرورة وضوح الحق وبيانه لذلك الشخص المفارق للشريعة بنفسه وبذاته .. فلا يكفى أن يكون الحق واضحًا لأمثاله .. أو لأقرانه، أو لمن هم فى مثل سنه أوقدره أو كذا أو كذا .. فذلك كله لا يكفى لثبوت العقاب فى حقه مادام هو نفسه جاهلاً .. فكما لا يؤاخذ العالم بجهل غيره. فكذلك لا يصح أن يحاسب الجاهل على علم غيره .. إذ لا تزر وازرة وزر أخرى.

ولعل هذه الآية هى أبلغ رد على من يعتبر أن الحجة قد قامت على كل الناس بمجرد بعثة الرسول حتى ولو خفى على بعض الناس شىء من تفاصيل الشريعة، فإنهم لا يعذرون بجهلهم بعد مبعث الرسول ﷺ ولو كان هذا الادعاء صحيحًا لكان يكفى البشرية إرسال رسول واحد، وإنزال كتاب واحد تقوم بهما الحجة ... ولكن تعدد الرسل والكتب فيه دليل على أن العلة المقصودة هى انتفاء الجهل، وحصول العلم لكل أحد .. فلو وجد الجهل وانتفى العلم لكان صاحبه معذورًا حتى وإن كان يعيش فى مدينة رسول الله ﷺ.

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى أرست مبدأ العذر بالجهل قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ .. وفى تفسيرها يقول ابن كثير إنها: «إخبار عن عدله تعالى، وأنه لايعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه»[1] .. وحتى لا يتوهم البعض أن العذاب المنفى فى هذه الآية هو عذاب الآخرة فقط، وأن أحكام الدنيا وعقوباتها لا تحتاج لإنذار ولا بيان .. يعالج الإمام الشنقيطى هذه النقطة فى تفسيره لنفس الآية ويقول: ظاهر هذه الآية الكريمة أن الله جل وعلا لا يعذب أحدًا من خلقه، لا فى الدنيا، ولا فى الآخرة حتى يبعث إليه رسولاً ينذره ويحذره .. فيعصى ذلك الرسول ويستمر على الكفر والمعصية بعد الإنذار والإعذار»[2] أ.هـ فهذا هو الذى يستحق العذاب .. إذ بلغه صوت الحق، ووصلته رسالة السماء نفسه .. ثم أصر على عصيانه وكفره .. ولم يستجب للإنذار والإعذار .. أما إذا لم يبلغه الحق .. أو بلغ غيره فإنه لا يؤاخذ لجهله .. ولا يقع عليه العذاب من الله عز وجل.

(١) تفسير ابن كثير (٤١/٥) ط. المكتبة التوفيقية

(٢) أضواء البيان للشنقيطى (٤٢٩/٣)

وكذلك قول المولى عز وجل: ﴿وَمَاكَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّايَتَّقُونَ﴾.. يقول فيه الشوكانى رحمه الله: «أى أن الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم، ولا يسميهم ضلالاً بعد أن هداهم للإسلام، والقيام بشرائعه، ما لم يقدموا على شيء من المحرمات بعد أن يتبين لهم أنه محرم .. أما قبل أن يتبين لهم ذلك فلا إثم عليهم ولا يؤاخذون به﴾[1].

وقال الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق بعد ذكر هذه الآية: «فقرر سبحانه وتعالى فى ختام هذا الحكم هذه القاعدة الشرعية العظيمة، وهى أن المؤاخذة دائماً بعد العلم، وهذا من فضل الله ورحمته فله الحمد» [2] أ.هـ

إن عدم العذر بالجهل هو الخطوة الأولى نحو الانزلاق فى هاوية التكفير .. لا تكفير عوام المسلمين فحسب .. بل تكفير الأمة كلها بما فيها صحابة رسول الله ﷺ وأفضل الخلق بعد المصطفى ﷺ .. فليس هناك مسلم لا يجهل شيئًا من أمور الدين أصوله وفروعه [3] .. حتى بعض كبار الصحابة الذين عاشوا على عهد النبي ﷺ خفى عنهم بعض تفاصيل الشريعة .. فقد ثبت أن أبا بكر رضى الله عنه .. كان يجهل أن للجدة السدس من الميراث ولم يحكم لها بذلك حتى شهد له المغيرة بن شعبة، ومحمد بن مسلمة بأن النبى ﷺ جعل لها السدس .. وكان عمر رضى الله عنه .. يجهل ما قاله النبى ﷺ فى شأن الطاعون، حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه .. بذلك.

ولو قلنا بكفر من يجهل شيئًا عن أصول الدين، فلن يسلم من سيف التكفير أحد حتى خيرة الصحابة وأكابرهم على حد هذا القول المجانب للرشد والصواب .. وللتأكد من ذلك فتعالوا بنا

---

(١) فتح القدير (٢ / ٤١٢)

(٢) الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ص ٧٢

(٣) كثير من الناس ممن تبوأ وا مناصب علمية عالية فى تخصصاتهم كالطب والهندسة والفيزياء وغيرها يحبون الدين، ويحبون أحكامه وشرائعه .. ولكنهم قد يجهلون بعض هذه الشرائع .. وقد يخفى عليهم بعض مسائل التوحيد والعقيدة .. وذلك لانشغالهم الشديد بتخصصاتهم واتقانهم لها .. فهؤلاء وأمثالهم حين يقعون فى شئ مما تعده الشريعة كفرًا أو تجاوزاً عن غير عمد منهم، بل عن جهل بحكم هذه المسائل .. فهم أولى بأن يعذروا بجهلهم، وألا يؤاخذوا بما خفى عنهم .. فعاطفتهم الدينية المتوهجة تخبر بأنهم لو علموا حكم ما وقعوا فيه لتجنبوه وابتعدوا عنه.

نعش قليلاً مع الرعيل الأول فى مدينة النبى ﷺ لنرى كيف كان رسول الله ﷺ يعذر الجاهل بشىء من أصول الدين من صحبه الكرام ولا يحكم عليه بكفر مادام جاهلاً.

فهاهو معاذ بن جبل - رضى الله عنه - أعلم الأمة بالحرام والحلال - يجهل حكم السجود لغير الله . ويجهل كون ذلك كفرًا .. فيسجد للنبى ﷺ [1] .. ومع ذلك لا يحكم النبى ﷺ عليه بالكفر لأنه جاهل بهذا الحكم.

قال الشوكانى: «وفى هذا الحديث دليل على أن من سجد جاهلاً لغير الله لم يكفر»[2].

وها هى عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - وقد ظنت أن الله تعالى لا يعلم خفايا النفوس ومكنونات الصدور .. وجهلت أن الله عز وجل يعلم السر وأخفى .. ومع ذلك لم يكفرها النبى ﷺ رغم جهلها بصفة من صفات الله تعالى .. فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه والإمام أحمد فى مسنده فى حديث طويل أن السيدة عائشة سألت النبى ﷺ وقالت : «مهما يكتم الناس يعلمه الله؟ قال : نعم».

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهذه عائشة أم المؤمنين. سألت النبى ﷺ : هل يعلم الله ما يكتم الناس؟ فقال لها النبى ﷺ : نعم .. وهذا يدل على أنها لم تكن تعلم بذلك .. ولم تكن قبل معرفتها بأن الله عالم بكل شىء يكتمه الناس كافرة .. وإن كان الإقرار بذلك بعد قيام الحجة من أصول الإيمان .. وإنكار علمه بكل شىء كإنكار قدرته على كل شىء.. فقد تبين أن هذا القول كفر، ولكن تكفير قائله لا يحكم به حتى يكون قد بلغه من العلم ما تقوم به عليه الحجة التى يكفر تاركها»[3].

وعن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة[4] يعكفون عندها وينوطون (يعلقون) بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فمررنا

---

(١) أخرجه البزار بسند رجاله ثقات: قال الهيثمى في مجموع الزوائد (٤ / ٣٠٩) : «رواه بتمامه البزار، وأحمد باختصار، ورجاله رجال الصحيح، وكذلك طريق من طرق أحمد، وروى الطبرانى بعضه أيضًا». وقال الشوكانى، وأخرج قصة معاذ المذكورة فى الباب البزار باسناد رجاله رجال الصحيح.

(٢) نيل الأوطار (٦ / ٣٦٣)

(٣) مجموع الفتاوى (١١ / ٤١١ - ٤١٣)

(٤) السدرة : هى شجرة النبق المعروفة فى مصر.

بسدرة فقلنا يا رسول الله .. اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .. فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر إنها السنن، قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون» لتركبن سنن من قبلكم»[1] .. فهؤلاء نفر من أصحاب النبى ﷺ قد خرجوا معه إلى الجهاد وهم يجهلون حكمًا من أحكام العقيدة .. فطلبوا منه شجرة يتبركون بها ويعكفون عليها .. وذلك اعتقادًا منهم بأن هذه الشجرة تأتى بالنصر .. وفى هذا التصرف مخالفة صريحة لتمام توحيد الله عز وجل .. والعلم بأسمائه وصفاته، بل جعله النبى ﷺ مشابهًا لقول بنى إسرائيل حين قالوا لنبيهم «﴿اجْعَل لنا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[2] فهل كفرهم النبى ﷺ وطلب منهم تجديد الإسلام؟ أم عذرهم بجهلهم وعدم علمهم بكون هذا السؤال شركًا؟!

يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق تعليقًا على هذه الحادثة: «والشاهد أن الرسول ﷺ لم يقل لهم كفرتم، وأبطلتم إسلامكم السابق، ولابد لكم من إسلام جديد .. وإنما يبين لهم أن هذا العمل شرك، وذلك ليحذروا منه مستقبلاً»[3].

وبعد تلك الشواهد السابقة التى تقطع باعتبار الشريعة للجهل كمانع من موانع التكفير والمؤاخذة فى الدنيا والآخرة .. قد يذكر لنا البعض قول الله تعالى :﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾[4] .. ويقول إن الله عز وجل يحكى لنا فى كتابه أنه أخذ هذا الميثاق على جميع الخلق وهم فى ظهور أبائهم .. وأشهدهم على توحيده فأقروا بذلك .. إذن فهذا الميثاق حجة على الناس جميعًا، ولا عذر لهم بجهل بعد الإقرار به.

والحقيقة أن هذا القول خاطئ من وجوه ..

---

(١) أخرجه الترمذى، وقال : حسن صحيح .. وأحمد والنسائى وحسنه الألبانى.

(٢) سورة الأعراف ١٣٨

(٣) الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ص ٧٢

(٤) سورة الأعراف ١٧٢

الوجه الأول

أن هذا الميثاق لو كان يصلح حجة كافية بنفسه لما كان هناك حاجة لإرسال الرسل، وإنزال الكتب .. ولكن الله عز وجل صرح فى كتابه بأن الذى تقوم به الحجة على الناس .. وينقطع به عذرهم، هو إرسال الرسل وإنزال الكتب.. قال تعالى : «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً»[1] .. ولم يقل حتى ننصب الأدلة العقلية والكونية على توحيد الله .. أو نغرس الإقرار بربوبيته وألوهيته فى الفطر البشرية.

الوجه الثانى

أن هذا الميثاق كان إقرارًا مجملاً بتوحيد الله فى ربوبيته وخلقه .. ولم يكن إشهادًا على العلم بتفاصيل الشريعة، ومسائل العقيدة .. فلم يتضمن هذا الميثاق مثلاً بيان ما يكفر به العبد من الأفعال والأقوال وغيرها مما ورد فى ميثاق الرسل .. وبهذا يكون ميثاق الرسل بتفصيله أولى بكونه حجة على الخلق من ميثاق الإشهاد العام المجمل.

الوجه الثالث

لو كان هذا الميثاق حجة على الخلق لكان احتجاج الكافرين بعدم إرسال رسول لهم من قبيل العبث .. ولكان رد القرآن عليهم بهذا الميثاق لا بإرسال الرسل .. ولكن الحاصل فى القرآن غير ذلك .. فجميع آيات القرآن التى تحدثت عن عذاب المشركين احتجت عليهم بإرسال الرسل لا بميثاق الإشهاد ولا الفطرة .. قال تعالى:

«وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً»[2] وقال عز وجل: «وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ»[3] فتبين من هذه الآيات وغيرها أن الحجة القاطعة إنما هى بإرسال الرسل لا بميثاق الإشهاد والفطرة.

---

(١) سورة الإسراء ١٥

(٢) سورة طه ١٣٤

(٣) سورة القصص ٤٧

الوجه الرابع

نقول لمن ذهب إلى أن الحجة قامت بميثاق الفطرة والإشهاد: هل تذكر أنت هذا الميثاق؟ فإن قال: نعم، فقد كذب .. وإن قال لا، قلنا له : فمن الذى ذكرك به؟ .. فإن قال: القرآن الذى نزل على الرسول ﷺ .. قلنا: إذن فالعبرة والحجة بميثاق الرسالة، لا ميثاق الفطرة والإشهاد [1] إذ كيف يكون الإشهاد حجة وحده ولم يعلم به أحد، ولم يتذكره أحد إلا حينما جاء به القرآن ؟!

والخلاصة

أن أحب شئ إلى الله تعالى هو العذر .. وأن الله قضى بواسع رحمته وعظيم عدله وحكمته ألا يؤاخذ أحدًا إلا بعد بلوغ الرسالة إليه بنفسه، واتضاح الحق له .. وظهوره واضحًا أمام عينيه.

وتعالوا نعش بقلوبنا مع قصة ذلك الرجل الذى شك فى قدرة الله تعالى جاهلا فعذره الله ولم يعاقبه لجهله وخشيته .. عن حذيفة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رجلاً حضره الموت، فلما يئس من الحياة أوصى أهله، إذا أنا مت فاجمعوا لى حطبًا كثيرًا، وأوقدوا فيه نارًا حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى فامتحشت[2]، فخذوها فاطحنوها، ثم انظروا يومًا راحًا (أى شديد الريح) فاذروه فى اليم: ففعلوا، فجمعه الله فقال له: لم فعلت ذلك. قال : من خشيتك فغفر الله له» [3].

قال شيخ الإسلام بن تيمية : «فهذا الرجل شك فى قدرة الله، وفى إعادته إذا ذرى (أى تفرق) بل اعتقد أنه لا يعاد .. وهذا كفر باتفاق المسلمين .. لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك .. وكان مؤمنا يخاف الله أن يعاقبه فغفر الله له بذلك»[4].

---

(١) ميثاق الإشهاد لا يقيم الحجة وحده .. ولكنه ينفع من مات قبل البلوغ : لانه يكون حينئذ قد مات على الفطرة . ومات مقرًا بهذا الميثاق، فى حين أنه لم يبلغ بعد حد التكليف ليكون مسئولا عن ميثاق الرسالة.

(٢) أى تفحمت

(٣) رواه البخارى ومسلم

(٤) مجموع الفتاوى (٣ / ٢٣١)

فما أوسع رحمتك يا رب .. وما أعظم حلمك على عبادك .. وحرى بكل مسلم أن يكون له نصيب من هذه الرحمة .. وأن يسعى جاهدًا للتخلق بما يحب الله تعالى من الأخلاق والصفات .. فإذا كان العذر أحب شئ إلى الله .. أفلا يليق بكل مؤمن أن يكون كذلك؟ وأن يسعه ما وسع عفو الله تعالى.

فهيا شباب الإسلام نحلم على المخطئ .. ونلتمس العذر للجاهل .. ونسعى فى تعليمه وإزالة الجهل عنه .. فذاك أولى وأحب إلى الله تعالى من العجلة فى تكفيره .. والتسرع فى إخراجه من دائرة الإسلام .. فإن ذلك لن يفيدكم شيئًا .. ولن يفيد الإسلام فى شىء.

﴿١١﴾ إقامة الحجة .. تعليم للجاهل وتذكير للناسى.

لقد حرص الإسلام حرصًا شديدًا على حفظ حرمة المسلم .. واهتم اهتمامًا بالغًا بصيانة كافة حقوقه الدينية والدنيوية .. فليس من طبيعة الإسلام أن يتصيد الأخطاء للناس ، أو يتتبع عثراتهم وزلاتهم فإذا ما وقع أحدهم فى زلة عاجله بالحكم الرادع، والعقوبة القاسية..

ولأن الإسلام هو دين العدل والرحمة والإحسان .. فهو يقدم التماس العذر دائمًا على الأخذ بالتهم والظنون .. وليس أحد أحب إليه العذر من الله عز وجل، من أجل ذلك أرسل الرسل ، وأنزل الكتب .. ولذلك فرقت الشريعة بين الكفر وبين فاعله .. وقررت أن الفعل قد يكون فى نفسه كفرًا، ولكن لا يسمح بتكفير صاحبه إلا بعد إقامة الحجه عليه .. وبيان الحكم الشرعى لما فعله بيانًا شافيًا كافيًا لا يلتبس على مثله ..

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «فليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين – وإن أخطأ وغلط – حتى تقام عليه الحجة، ويبين له المحجة.. ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل عنه ذلك بالشك .. بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة».(١)

إن الإسلام يفترض فيمن خالطت بشاشة الإيمان قلبه، وذاق حلاوته ألا يدير ظهره لهذا الدين أو يتنكر له إلا لعذر .. إذ من المستبعد أن يعمد المسلم إلى الكفر قاصدًا مختارًا بعد أن عاش فى كنف الإسلام ردحًا من الزمن .. لذا تمهلت الشريعة فى إطلاق حكم الكفر، وسلب شرف الإيمان من صاحبه .. ومنحته فرصة أخيرة يراجع فيها نفسه .. فجعلت من إقامة الحجة شرطًا لإصدار حكم الكفر وذلك حتى تكون الحجة تعليمًا للجاهل .. وتذكيرًا للناسى .. وتنبيهًا للمخطئ وكشفًا لشبهة المتأول .. «لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢ / ٤٦٦)
(٢) سورة الأنفال ٤٢

ولكن .. ما هى صفة تلك الحجة؟ وما هى شروط من يقيمها؟ وهل يصلح لإقامة الحجة أى أحد؟ وإذا لم يصلح لها أى أحد .. فما هى المؤهلات التى يجب توافرها فيمن يقيم الحجة؟! لاسيما والآثار المترتبة عليها من الخطورة بمكان .. فإقامة الحجة تعنى خروج مسلم من دينه .. ونزع ربقة الإسلام عن عنقه .. ذلك إذا أصر على فعل الكفر بعد إقامة الحجة التى يكفر تاركها .. فأى مواصفات تلك التى يجب أن يتحلى بها أصحاب مهمة عسيرة كهذه المهمة؟!

رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية .. فقد كفانا وكفى الأمة عبء التفكير فى إجابة تلك الأسئلة بقوله العظيم : «وينبغى أن يقيمها من يحسن القيام بذلك من سلطان مطاع أو عالم متبوع .. ولا يترك أمر القيام بها لمن لا يحسن ذلك حتى لا يزيد أهل الباطل تمسكا بباطلهم»[1].

إذن، فليس كل أحد مخولا بإقامة الحجة .. ولا يصلح لها أى شخص ولا يكتفى فيها بمجرد العلم وطلاقة اللسان .. بل لابد فيمن يقيم الحجة من هيبة وسلطان بين الناس يجعل لبيانه منزلة، ولعلمه مكانة .. ويجعل لكلامه من القوة والسطوة ما يجعل السامع له يحمله على محمل الجد..

والعالم المهاب، والسلطان المطاع لهما من تلك المهابة والسطوة ما يؤهلهما لإقامة الحجة .. فالأول حاز بعلمه الواسع مكانة فى قلوب الخلق .. وتبوأ فى نفوسهم منزلة كريمة .. فلا يقطعون أمرًا دونه .. ولا يمضون شأنًا بغير الرجوع إليه.

والثانى – أى السلطان المطاع .. فله من سطوة الحكم .. ونفوذ السلطان ما يحمل الناس على طاعة أمره .. والنزول على رأيه .. كما أن للسلطان بينهم من المكانة ما يجعل قوله مطاعًا وزجره نافذًا.

فليس المقصود من إقامة الحجة هو مجرد سرد الأدلة .. وبيان الأحكام الشرعية ، بل لابد من أن يكون ذلك كله بصورة تحمل السامع على قبول ذلك البيان .. وتدفعه إلى الإذعان له والاقتناع به .. ولا يتحقق ذلك إلا بأن يقيم عليه الحجة من هو أرفع منه قدرًا وأعلى مكانة.

فأستاذ الجامعة مثلا لا يصلح لإقامة الحجة عليه من هو أقل منه شأنًا، وأدنى منه منزلة، كأن يكون مثلاً طالبًا من طلابه الذين يتتلمذون على يديه .. فهو لن يقبل من مثل هؤلاء ابتداءً أن

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية

يقيموا عليه حجة .. لأنه لا يرى لأحدهم عليه ميزة.. بل يرى أنه أعلى منهم منزلة ومكانة .. هذا فضلا عن أن يقبل إقامة الحجة من صاحب مؤهل متوسط مثلا أو شخص غير متعلم حتى ولو كان أكثر منه علمًا فى أمور الشرع .. فهو ابتداءً لم يقبل ذلك الشخص فكيف يقبل كلامه ؟! .. فإذا كان أستاذ الجامعة وهو أقل شأنًا واعتزازا بنفسه من الحاكم، لا يقبل ذلك، أى لا يقبل إقامة الحجة ممن هو أدنى منه .. فكيف يظن البعض أن أى أحد حتى ولو كان من شباب الحركة الإسلامية يصلح لإقامة الحجة على الحكام .. أو إلزام الحكام الحجة .. فضلاً عن إطلاق الأحكام عليهم بناءً على ما ألزمهم به..

فلا بد من التناسب فى إقامة الحجة .. وذلك بأن يقيمها من هو أعلى مكانة وأرفع قدرًا .. والأصل فى إقامة الحجة فى دولة الإسلام كما قرر الفقهاء هو أن يقيمها القاضى على من له شبهة فى أصول الدين .. وقد يستدعى القاضى طائفة من العلماء ليستعين بهم فى ذلك .. وهذا القاضى المنوط به إقامة الحجة لا يمتلك من العلم ما يؤهله لتلك المهمة فحسب .. بل لديه من السلطان والقوة والمهابة ما يجعله قادرًا على إقناع ذلك الشخص بالحجة وإلزامه إياها أولاً .. وقادرًا على إنفاذ الأحكام الشرعية التى سيصدرها بدءًا من السجن إلى ما فوقه ثانيا.

والأصل فى الحجة أن تكون مباشرة وأن تتم إقامة الحجة وجهًا لوجه بغير واسطة بين من يقيمها ومن تقام عليه .. فذلك أرجى لقبولها .. وأدعى لوضوحها .. وأقدر على إزالتها لأى شبهة وبيانها بيانًا شافيًا لا يلتبس على مثل صاحبها .. ولا تصلح إقامة الحجة من خلال خطبة يلقيها داعية فى أحد المساجد، وتطبع فى شريط من الأشرطة .. كما لا تصلح إقامة الحجة من خلال بيان يوزع هنا وهناك أو كتاب يطبع هنا وهناك.

وبعض الدعاة حين يقوم بإلقاء خطبة فى أحد المساجد .. أو يؤلف كتابًا أو يطبع رسالة يظن أنه بذلك قد أقام الحجة، وأزال عن الناس الشبهة .. مع أن كثيرًا من الناس ربما لم يعرفوه ولم يسمعوا خطبته .. ولم يقرأوا كتابه بل ربما لم يروه أصلاً.

وقد تأخذ الحماسة بعض الشباب إلى أبعد من ذلك .. فيرى أن هذه الخطب أو تلك المقالات كافية لإقامة الحجة حتى على الحكام، وإلزامهم بها .. ثم يسمح لنفسه بإطلاق أحكام الكفر

والفسق والنفاق تأسيسًا على هذا الظن الخاطئ .. وبناء على تلك الحجة المتوهمة .. وربما غاب عن هؤلاء الشباب أن الحاكم قد لا يسمع عن ذلك كله شيئًا، ولا يشعر به .. وحتى لو سمع عنه فلن يلقى له بالاً فى خضم أعباء الحكم ومشاغله .. فضلا عن كون تلك الصورة لا تعبر عن الحجة الصحيحة التى تكلم عنها العلماء .. ورسموا حدودها .. وبينوا شروط من يؤهل لإقامتها..

إن إقامة الحجة شىء .. والدعوة إلى الله شىء آخر .. نعم، قد تندرج تلك الخطب والكتابات تحت باب الدعوة إلى الله تعالى .. وعلي ذلك يكون قيام المسلم بها أداءًا لواجب النصيحة .. وسعيا إلى مرضاة الله عز وجل .. ولا يترتب عليها إطلاق أحكام الكفر والفسق على الناس .. كما لا ينتج عنها أى آثار شرعية من إهدار الدم والمال ..

أما إقامة الحجة فلها شأن آخر .. ولا يصلح لإقامتها أىٌّ أحدٍ .. كما أنه لا يترتب عليها آثار وأحكام شرعية لا يقوى عليها إلا صاحب نفوذ وسلطان بين الخلق .. فليلزم الدعاة إلى الله حدود دعوتهم .. ولا يحطوا رحالهم فى غير أرضهم .. حتى لا تضيع الدعوة ويفسد الدين.

وليدعوا أمر الحكم على الناس لأهله المختصين به .. وإن لم يفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير.

﴿١٢﴾ المعلوم من الدين بالضرورة .. حدوده وضوابطه

اتفق أهل السنة على أنَّ من جحدَ معلومًا من الدين بالضرورة كفر ولم يعذر بجهله .. هذه قاعدة من قواعد الشريعة الإسلامية، طالما سمعناها على ألسنة العلماء، وكثيرا ما قرأناها فى كتبهم .. وتفيد تلك القاعدة كفر من يجحد أمرًا معلومًا من دين الله بالضرورة .. وهو ذلك الأمر الذى شاع علمه بين الناس، وانتشر ذكره فيهم بحيث صار معلومًا للعامة قبل الخاصة .. وللصغار قبل الكبار، فوضوحه بين الناس كوضوح الشمس فى وسط النهار لا يخفى ضوؤها على أحد.

ولعل المغزى الدقيق فى اعتبار الجحود كفرًا هو أن الجحود فى حد ذاته يعد اعتراضًا على أمر الله عز وجل .. ومناقضة صريحة لما شرعه سبحانه وارتضاه لعباده .. فأساس الإسلام وحقيقته هى الاستسلام لله عز وجل، والإقرار بكل ما شرعه .. والجحود والإنكار ينافى ذلك الإستسلام ويناقضه ومحال أن يجتمع الجحود والاستسلام فى قلب إنسانٍ إلا إذا اجتمع النور والظلام فى آن واحد.

ومما يلفت الأنظار فى تلك القاعدة أنَّ الشريعة قد علقت حكم الكفر على جحد المعلوم من الدين بالضرورة لا على الترك أو التقصير فى أدائه .. فمجرد ترك أمر من أمور الدين أو التقصير فيه لا يخرج صاحبه من الإسلام .. ولا يدخله فى دائرة الكفر .. وذلك مادام مقرًا بوجوب ما ترك .. ومعرفاً فى قرارة نفسه بتقصيره فى جنب الله عز وجل .. أما لو جحد فريضة من فرائض الإسلام وأنكر وجوبها فى دين الله تعالى .. فإن ذلك يكون كافيا لخروج صاحبه من دائرة الإسلام حتى ولو كان قائماً بهذا الواجب مؤديًا له .. إذ لا ينفعه فعل الجوارح مع إنكار القلب وجحوده.

وكثيرًا ما يتساءل الشباب عن ماهية الأمور المعلومة من الدين بالضرورة ويقول فى نفسه .. ما هو معنى المعلوم بالضرورة؟ .. ومالمقصود به؟ . . وما هى حدوده وضوابطه؟ وتلك أسئلة وجيهة، وإجابتها غاية فى الأهمية .. ولكننا قبل الشروع فى الإجابة عنها نتوقف قليلاً مع استثناء مهم وضعه العلماء لهذه القاعدة .. فقد اســـتثنى العلماء منها صنفين من الناس .. واعتبروا جهلهم

بالمعلوم من الدين بالضرورة عذرًا مقبولا يحول دون إطلاق حكم الكفر عليهم.

أما الصنف الأول: فهو حديث العهد بالإسلام .. وهو ذلك الشخص الذى دخل الإسلام حديثًا .. فلا شك فى احتمال خفاء كثير من أحكام الإسلام عليه .. وجهله بالعديد من شرائعه المعروفة .. فلو أنكر مثل هذا الشخص شيئًا مما هو معلوم بالضرورة من دين الله تعالى ، فإنه لا يكفر بهذا الجحود والإنكار .. بل يقوم المسلمون بتعليمه وبيان ما خفى عليه .. فلو افترضنا مثلاً أن أحد الأمريكيين أو الفرنسيين أو غيرهم اعتنق الإسلام حديثًا .. وكان هذا الشخص يجهل تحريم شرب الخمر فى شريعة الإسلام .. أو لا يعلم بحرمة أكل لحم الخنزير .. أو كان جاهلا بوجوب صيام شهر رمضان .. ثم جحد شيئًا من ذلك كله فهو معذور بجهله .. ولا يكفر لأنه حديث عهد بالإسلام.

وأما الصنف الثانى .. فهم أولئك الذين نشأوا فى بادية بعيدة، أى فى أرض نائية عن بلاد الإسلام .. ولبعدهم عن ديار المسلمين فهم لا يعرفون شيئًا عن أحكام الإسلام وشرائعه .. فأمثال هؤلاء لو دخلوا فى دين الله تعالى ثم أنكروا ما هو معلوم منه بالضرورة فإنهم يعذرون بجهلهم ويجب على إخوانهم من المسلمين تعليمهم

ومن طالع أحوال البلاد التى استقلت عن الاتحاد السوفيتى عقب انهياره أو تلك التى عاشت ردحًا من الزمن تحت نير الحكم الشيوعى كألبانيا .. والبوسنة والهرسك مثلاً، فسيجد أن أغلب المسلمين فى تلك البلاد .. حتى وقت قصير .. كانوا لا يعرفون كثيرًا من شرائع الإسلام .. وكانوا لا يعلمون شيئًا عن القرآن الكريم .. بل ربما عاش أحدهم عمره كله دون أن يشاهد مصحفاً .. فقد كانت الشيوعية تحكم بالإعدام على من يضبط لديه ورقة من أوراق المصحف .. بل إن كثيرًا من نساء البوسنة - حتى وقت قريب - كن يجهلن حرمة زواج المسلمة من غير المسلم .. فكان الكثيرات منهن يقبلن الزواج من الصرب أو الكروات .. فأمثال هؤلاء ممن نشأوا فى غير أرض الإسلام .. فكيف يحكم عليهم بالكفر لو أنكروا شيئاً من شرائع الدين وأحكامه؟!

ومن عجيب ما ذكره أحد الدعاة الرحالة .. وكان قد زار بعض بلاد أفريقيا .. أنه فوجئ برجال بعض القبائل يجمعون فى عصمتهم أكثر من أربع زوجات بل وصل الحال بأحدهم أن جمع بين عشرين زوجة فى وقت واحد.. فلما كلمهم فى ذلك الأمر اكتشف مفاجأة غريبة .. وهى أنهم لا يعلمون بحرمة الجمع بين أكثر من أربع زوجات .. وهؤلاء مسلمون يحبون الإسلام .. ويؤمنون برسالته .. ورغم ذلك يجهلون فى بلادهم هذا الحكم من أحكام الإسلام .. والذى يعرفه فى بلادنا المسلمة صغار أبناء المسلمين بل وغير المسلمين ممن يعيشون بيننا.

ونعود ثانية إلى سؤالنا السابق .. ونشرع فى الإجابة عليه من كلام العلماء .. وذلك لتحديد ما هية المعلوم من الدين بالضرورة .. وبيان حدوده وضوابطه .. ويمكننا ببساطة أن نعرف المعلوم من الدين بالضرورة فنقول .. هى تلك الأمور التى شاع وانتشر علمها بين الناس جميعًا بحيث صار يعرفها جميع المسلمين ولا فرق فيها بين صغير وكبير ، وعامى ومختص .. فهى واضحة وضوح الشمس فى وسط النهار.

وعرفها الإمام النووى رحمه الله قائلاً: «هى ما انتشر العلم به ..وكان مجمعًا عليه».[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : «هى الواجبات الظاهرة المتواترة .. والمحرمات الظاهرة المتواترة»[2].

وعنها يقول أيضا الدكتور/ يوسف القرضاوى : «وهى التى ثبتت ثبوتا قطعياً وأصبحت من الأحكام اليقينية التى لا يتطرق إليها ريب ولا شبهة أنها من دين الله»[3] أ. هـ

وواضح من مجموع التعريفات السابقة أن لها شروطًا ثلاثة:

الشرط الأول: أن تنقل إلينا بالتواتر: كالقرآن الكريم مثلاً، وكالفرائض الخمسة وغير ذلك من العقائد والأحكام المتواترة . وبذلك لا يعد معلومًا من الدين بالضرورة ما نقل بطريق الآحاد.

الشرط الثاني : أن يكون مجمعًا عليها : أى يتفق عليها علماء الأمة فى أى عصر من العصور بعد وفاة النبى ﷺ .. وبذلك لا يعد معلومًا بالضرورة ما اختلف فيه العلماء.

---

(١) شرح صحيح مسلم (٢) مجموع الفتاوى (٣) فتاوى معاصرة

الشرط الثالث: أن ينتشر العلم بها ويصل إلى كافة المسلمين.

وهذه الأمور المعلومة من الدين بالضرورة قد سماها الإمام الشافعى رحمه الله «علم العامة». وضرب لها أمثلة فى رسالته فقال: مثل الصلوات الخمس، وأن لله على الناس صوم شهر رمضان .. وحج البيت إن استطاعوه، وزكاة فى أموالهم .. وأنه حرم عليهم الزنا والقتل والسرقة والخمر، وما كان فى معنى هذا مما كلف العباد أن يعقلوه ويعلموه ويعطوه من أنفسهم وأموالهم .. وأن يكفوا عنه مما حرم عليهم منه»[1] أ.هـ

فليس كل واجبات الدين داخلاً ضمن المعلوم بالضرورة .. وليس كل المحرمات أيضا كذلك. ويمكننا أن نقول إن حد المعلوم بالضرورة هو ما استفاض علمه وانتشر بين الناس من تلك الواجبات أو المحرمات بحيث صار معلومًا لعوام المسلمين جميعًا ، فهناك من أحكام الشرع، بل من واجباته ومحرماته ما يخفى علمه عن كثير من المسلمين .. وربما لا يعلمه إلا المتخصصون من العلماء .. فمثل هذا لا يصح أن يدخل ضمن المعلوم بالضرورة .. فكثير من الناس مثلاً لا يعرف حرمة الجمع بين المرأة وعمتها أو المرأة وخالتها فى أمر الزواج .. رغم أن هذا الحكم يعتبر من المحرمات المتواترة القطعية .. ولكنه افتقد أهم شروط المعلوم من الدين بالضرورة .. ألا وهو أن يكون مما شاع علمه وانتشر بين الناس.

وإن حرمة الخمر معلومة بالضرورة من دين الله تعالى .. فقد استفاض العلم بحرمتها بين المسلمين .. ولكن العقوبة الشرعية لشارب الخمر لم تحدد تحديدًا صريحًا .. بل وقع الخلاف فيها بين العلماء ما بين أربعين أو ثمانين جلدة .. فلا يصح أن تدخل عقوبة شارب الخمر ضمن المعلوم من الدين بالضرورة .. ولو جحدها مسلم لم يكفر بذلك الجحود .. وذلك لكونها ليست من المعلوم من الدين بالضرورة .. وكذلك الحال فى غيرها من واجبات الدين وأحكامه مما خفى علمها على كثير من الناس، ولم يحط بها علمًا إلا المتخصصون من أهل العلم.

وهنا قول الإمام النووى رحمه الله يزيد الأمر توضيحًا.

يقول النووى: فأما اليوم وقد شاع دين الإسلام، واستفاض فى المسلمين علم الزكاة حتى

(١) الرسالة للإمام الشافعى

عرفها العام والخاص، واشترك فيه العالم والجاهل، فلا يعذر أحد بتأويل يتأوله فى إنكارها .. وكذلك الأمر فى كل من أنكر شيئًا مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين إذا كان علمه منتشرًا كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان والاغتسال من الجنابة وتحريم الزنا والخمر ونكاح ذوات المحارم ونحوها من الأحكام. إلا أن يكون رجلاً حديث عهد بالإسلام ولا يعرف حدوده .. فإنه إن أنكر شيئًا منها جهلاً به لم يكفر .. وكان سبيله سبيل أولئك القوم فى بقاء اسم الدين عليه .. فأما ما كان الإجماع فيه عن طريق علم الخاصة (أى المتخصصين) كتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها .. وأن القاتل عمدًا لا يرث .. وأن للجدة السدس، وما أشبه ذلك من الأحكام ، فإن من أنكرها لا يكفر، بل يعذر فيها لعدم استفاضة علمها فى العامة[1] .أ.هـ

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأمور المعلومة من الدين بالضرورة يختلف العلم بها وشيوعها بين الناس بحسب الزمان والمكان .. فقد يقل العلم بها فى مكان دون مكان، بحسب انتشار الإسلام وقوته، فالمعلوم من الدين بالضرورة فى بلد كمصر أو السعودية، هو بلا شك أوسع دائرة منه فى بلاد كألبانيا وأوزبكستان .. وكذلك الحال بالنسبة للزمان . فقد يزيد العلم بها فى عصر من العصور، ويقل فى عصر آخر، بل قد روى فى أحاديث آخر الزمان أن كثيرًا من شعائر الإسلام ستندثر وتطمس معالمها قبل قيام الساعة .. فلا يعرف الناس من الإسلام إلا قول لا إله إلا الله، ويدخلون بذلك الجنة لأن هذا هو مبلغ علمهم فى ذلك الوقت .. فما أوسع رحمة الله بعباده .. وما أعظم سماحة هذا الدين الخاتم .. وصدق رسول الله ﷺ حين قال:

«بعثت بالحنيفية السمحة».

(١) شرح صحيح مسلم للنووى (١ / ١٨٣)

﴿١٣﴾ مخالقة مشروعة .. لا موالاة ممنوعة

فرق كبير بين الموالاة الممنوعة .. وبين المخالقة المشروعة .. فالموالاة الممنوعة المحرمة هى محبة غير المسلمين لأجل دينهم وعقيدتهم .. وهي نصرة غير المسلمين ومؤازرتهم على السوء والباطل باليد أو بالقلب أو باللسان .. وهذه الموالاة هى التى قد تنقض إيمان صاحبها فتخرج به من دائرة الإيمان والإسلام .. وقد تكون سببًا فى نقصان إيمانه، والقدح فى كمال دينه وتمامه.

أما المخالقة المشروعة فهى تعنى الاقتداء بهدى المصطفى- ﷺ - فى معاملة الناس كل الناس مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم .. ومن ذلك حسن الخلق معهم جميعًا «وخَالق الناس بخلق حسن»[1] ولين القول لهم «وقولوا للناس حسنًا» .. والتعامل مع جميع الخلق بالفضل والإحسان، وإن لم يكن فبالعدل والقسطاس المستقيم.

وقد يظن البعض أن حسن التعامل مع النصرانى أو اليهودى أو غير المسلم عمومًا هو نوع من الموالاة الممنوعة المحرمة فلو شاهد مسلمًا يبش فى وجوه الناس مسلمهم وكافرهم أو يبذل لغير المسلمين شيئًا من المعروف والإحسان .. فيزور هذا فى فرحه وحزنه .. ويعود ذاك فى مرضه .. ويهدى النصرانى هدية أو يقبل منه مثلها .. ويهنىء جارًا غير مسلم بإنجاب ذرية، أو نجاح فى كلية، أو زواج أو قدوم من سفر .. فهذا المسلم عنده لا يفهم حقيقة الولاء والبراء .. ولا يدرك جيدًا معنى الموالاة والمعاداة في الله بل قد يكون فى نظره رقيق الدين متميع الاعتقاد .. وتلك نظرة خاطئة اختلطت فيها المفاهيم .. والتبست فيها معانى الموالاة المحرمة بمعانى المخالقة المشروعة الجائزة .. رغم ما بينهما من فجوة هائلة وبون عظيم.

إن الإسلام جاء - حين جاء - بأعظم الأخلاق وأسماها وأشرفها .. ورسول الله ﷺ - إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق .. كما أخبر هو عن نفسه ﷺ إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[2] وقد فرق الشرع الحنيف بين ما يعد موالاة ممنوعة للكفار ، وبين ما لا يعد من قبيل الموالاة لهم ..

(١) رواه أحمد والترمذى عن معاذ رضى الله عنه. وقال: حديث حسن.

(٢) رواه أحمد عن أبي هريرة رضى الله عنه.

والموالاة الممنوعة شرعًا تشمل معان كثيرة .. منها محبة الكافرين، أو محبة دينهم أو نصرة مذهبهم وشريعتهم، أو التجسس على دولة الإسلام لصالحهم، أو تفضيل دينهم على دين المسلمين ، أو معاونتهم على هزيمة المسلمين، أو اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين.

أما المخالقة المشروعة التى أجازها الإسلام .. فإن نظرة واحدة على أخلاق المصطفى ﷺ تكفى لتوضيحها وبيانها .. فقد حفلت حياة النبى ﷺ بأرقى صور التعامل الإنسانى مع غير المسلمين .. ألا ترى أن رسول الله ﷺ كان يعامل الخلق كلهم بالفضل والإحسان؟!. ألا تراه يعود اليهودى المريض فى بيته وهو رئيس الدولة وإمام الدين؟ ألا تراه يجيب دعوة يهودى على إهالة سنخة[1] فلم يستنكف أن يأكل من هذا الطعام الردىء فى وقت جمعت له فيه رئاسة الدين والدنيا- ألا تراه يجيب دعوة امرأة يهودية على شاة؟! .. ألا تراه يقبل هدية المقوقس عظيم القبط فى مصر، وهو يومئذ مشرك؟ وقد كان ﷺ يقبل الهدايا من المسلم والكافر، واليهودي والنصرانى، ألا تراه قد أوصى أسماء بنت أبى بكر أن تصل أمها المشركة؟! مع أن معنى الصلة معنى عميق، فهو شامل للبر والاستضافة والإكرام والإهداء، كما تصل الإبنة أمها والأم ابنتها. وقد استغاث مشركو قريش برسول الله ﷺ - لما أصابتهم المجاعة، فأرسل إليهم قوافل الطعام دون منّ ولا أذى. ولما منع ثمامة بن أثال بعد إسلامه الميرة (أى الحبوب والطعام) عن قريش .. وناشد مشركوا قريش برسول الله ﷺ الله والرحم أن يثنيه عن ذلك.. فأمره ﷺ أن يعيد الميرة إليهم، ويعطيهم ما كان يعطيهم إياه من قبل .. رغم حربهم الشعواء على الإسلام والمسلمين.

فهذه الأفعال وغيرها من رسول الله ﷺ وصحابته الأجلاء إنما تدخل فى باب المخالقة الحسنة التى كان للمسلمين الأوائل النصيب الأوفر فيها مع كل الخلائق .. وذلك اتباعاً للتوجيه القرآنى الكريم «وقولوا للنَاس حسنًا» وتطبيقا للمبدأ النبوى العظيم «وخالق الناس بخلق حسن» فلم يقل النبى - ﷺ - وخالق المسلمين أو المؤمنين فقط .. ولم يقل المولى عز وجل .. وقولوا لأهل الإسلام أو الإيمان فحسب . . وإنما قال للناس كل الناس .. المؤمن والكافر، المسلم والنصرانى ، البعيد والقريب ، من معك ومن ليس معك .. فأى فضيلة فى ملة من الملل أعظم من هذه الفضيلة .. وأى أدب فى دين من الأديان أرفع وأرقى من هذا الأدب.

(١) إهالة سنخة: الدهن الذى تغيرت رائحته من طول المكث.

وتعالوا بنا نستعرض بعضًا من صور المخالقة الحسنة الجائزة مع غير المسلمين والتى قد يظنها البعض - على سبيل الخطأ - من صور الموالاة المحرمة . مع أنها ليست كذلك فمن صور المخالقة الحسنة الجائزة : عيادة المرضى من غير المسلمين فى مرضهم .. وقد فعله النبى ﷺ مع الغلام اليهودى ومع غيره.

ومنها : جواز تهنئة غير المسلم من النصارى واليهود وغيرهم بالزواج أو بإنجاب الأولاد والذرية أو بالعودة من السفر، أو الشفاء من المرض، أو ما شابه ذلك من الأمور الدنيوية المباحة فى جميع الأديان.

ومنها: وجوب إنفاق المسلم على قرابته من أهل الذمة من يهودى ونصرانى ممن تجب عليه نفقتهم .. والندب إلى ذلك لمن لا تجب عليه نفقتهم من باب الإحسان وصلة الرحم .. فصلة الرحم واجبة وإن كانت لغير المسلمين.

ومنها: جواز تشييع المسلم لجنازة غير المسلمين، والوقوف إذا مرت جنائزهم كما فعل النبى - ﷺ - وقد علل ذلك بقوله : «أليست نفسًا» جوابًا لمن قال له : إنها جنازة يهودى[1].

ومنها: جواز تعزية غير المسلمين بما لا يخالف الشرع، ولا يكون فى مكان عبادتهم.

ومنها: جواز مشاركتهم فى العمل المباح كالبيع والشراء والرهن والاقتراض وغير ذلك من المعاملات الجائزة كالمضاربة والمشاركة فى التجارة وغيرها.

ومنها : قبول هديتهم، والإهداء لهم

ومنها: استئجارهم . وكذلك استئجار المسلم نفسه عندهم مادام هذا الاستئجار لا يتضمن انتهاكا لدين المسلم أو اخلالاً بواجباته تجاه دينه وربه.

ومنها: جواز الزواج من النساء المحصنات من أهل الكتاب كاليهود والنصارى .

هذه الصور السابقة، وغيرها من صور المخالقة الحسنة المشروعة كانت سببًا فى مد جسور التواصل بين المسلمين، وبين غيرهم من أبناء الديانات الأخرى .. فقد سهلت هذه المعاملات إقامة شبكة من العلاقات الاجتماعية القوية .. مما أتاح لغير المسلمين فرصة التعرف عى محاسن الإسلام عن قرب .. ومن ثم، فقد دخل الكثير منهم فى دين الله أفواجًا.

(١) رواه مسلم عن قيس بن سعد وسهل بن حنيف - رضى الله عنهما.

والواقع أن هذا النوع من المخالقة الحسنة المشروعة .. بعكس ما يتصور البعض إنما ينفع الإسلام ولا يضره .. ويقوى شوكة الدين ولا يضعفه .. ويفتح له آفاقًا جديدة للنمو والانتشار .. فهو بمثابة السفير المشرف لهذا الدين العظيم .. ولنا أن نسأل أنفسنا: هل كان للإسلام أن يسود وينتشر فى مصر حتى توافد أقباط مصر النصارى سراعًا إلى الإسلام دون تلك الصور الراقية من أخلاق المسلمين ؟! وهل كان لبلاد الهند وجزر أندونيسيا، وغيرها من البلاد التى وطئتها أقدام تجار المسلمين أن تدخل فى الإسلام بغير هذه المخالقة المشروعة؟! كيف يكون الحال، لو أن مسلمًا قد عقد العزم على دعوة نفر من غير المسلمين للدخول فى الإسلام .. وهو مع ذلك لا يهنئوهم بأفراحهم .. ولا يعزيهم فى مصابهم، ولا يعودهم فى مرضهم .. ويمتنع عن تلبية دعوتهم أو قبول هديتهم .. ويأنف من مؤاكلتهم ومشاربتهم .. ثم كلما لقيهم فى طريق أو قابلهم فى مكان تجده عبوسًا مكفهر الوجه منقبض النفس .. فأنى لمثل هذا أن يدعوهم إلى الإسلام؟! وبأى وسيلة سيبلغهم رسالة السماء؟! وهل ستصغى قلوبهم لنداء الحق الذى يسوقه إليهم بعدما شيد بينه وبينهم من حواجز وسدود؟!

إن الحكمة الربانية من إباحة هذه الصور من مخالقة غير المسلمين - والله أعلم - تتلخص فى أن الإسلام دين قوى منفتح .. وهو لا يخشى شيئًا من الانفتاح على الآخرين والتعامل معهم .. والمسلم لا يخشى كذلك من الانفتاح على أهل الأديان الأخرى .. فهو قادر على أن يعطيهم النافع من دينه ودنياه، ويأخذ منهم الصالح من أمور دنياهم .. لذلك فهو يقترب منهم دون وجل مادام هو القوى بعقيدته وشريعته .. يحسن إليهم فى المعاملة ويخالقهم أفضل مخالقة .. يعرفون عظمة الإسلام من خلال سلوكه وتصرفه ويحببهم فى الدين بعمله قبل أن يتحدث عن مبادئه .. ويرون فيه أعظم قدوة، وأحسن أسوة للأدب الراقى، والخلق النبيل، وأمانة الكلمة، وصدق العهد.

إن الإسلام لا يميل إلى العزلة .. ولا يحب الانطواء ولا الإنزواء .. إذ هو غير اليهودية على سبيل المثال .. فاليهود ينعزلون على أنفسهم .. لا يتزوجون من أحد، ولا يزوجون أحدًا .. قد حصروا أنفسهم داخل الجيتو اليهودى .. ولذلك تجدهم منبوذين مكروهين من الجميع عادة .. وقد لا تسمع أبداً أن أحدًا يعتنق اليهودية .. لأن العزلة تعنى التراجع والتقلص فالجمود والانحسار .. وفى النهاية الذبول ثم الوفاة والإسلام ليس كذلك..

فالإسلام بطبيعته دين ديناميكى متحرك .. يتفاعل مع الآخرين .. يأخذ منهم ويعطى .. ويتفاعل دومًا مع الحياة .. فشريعته المتميزة تكسبه البهاء والنضارة وتجعله غضًا طريًا عبر القرون والأزمان .. فحرى بالشباب المسلم أن يفقه طبيعة دينه .. وأن يطرح جانباً وساوس القلق والتوجس من الانفتاح على غير المسلمين .. وليعش بروحه وفكره مع أعظم الخلق إحساناً إلى الخلق محمد ﷺ فيسير بين الناس كل الناس كما سار حبيبه وقدوته ﷺ بالكلمة الطيبة والخلق الجميل ليكون خير عنوان لخير دين.

﴿١٤﴾ هل كل محبة لغير المسلم موالاة محرمة؟

طالعتنا إحدى الصحف العربية ذات يوم بهذا الخبر:

- أقدم أمريكى مسيحى من أصل بورتوريكى فى الثالثة والخمسين من عمره - بدعم من زوجته وأصدقائه وأهله، وخاصة والده - على التبرع بكليته لزميله السودانى المسلم فى هيئة التدريس بإحدى الجامعات الأمريكية[1].

- وهنا نطرح سؤالاً نقول فيه: لو أن هذا الرجل المسلم شعر بنوع من الحب والامتنان تجاه زميله المسيحى لقيامه بهذا الموقف النبيل الذى كان سببًا فى إنقاذ حياته وتخفيف معاناته الشديدة .. فما حكم هذا الرجل؟

- وهل يعد حبه لهذا المسيحى موالاة للكافرين تخرج به عن دائرة الإسلام؟

- وماذا لو أن جراحًا مثل د. مجدى يعقوب - أشهر جراح للقلب فى العالم - أنقذ حياة مريض مسلم، وأجرى له جراحة نادرة فى القلب قام على إثرها سليما معافى بعد أن كان طريح الفراش .. ثم تنازل هذا الجراح المسيحى الديانة عن أتعاب العملية الجراحية .. ماذا لو أحس ذلك المسلم من داخله بنوع من المحبة لهذا الطبيب الذى كتب الله له على يديه عمرًا جديدًا.. هل ينبغي عليه حينئذ أن يراجع قلبه، ويتفقد إيمانه؟

وهل يعد هذا الشعور منه نوعًا من الخلل فى الاعتقاد؟ وصورة من صور الولاء لغير المسلمين؟

- وبطريقة أخرى، نعيد طرح الأسئلة السابقة ونقول: من المعلوم أن المحبة هى إحدى المعاني القلبية التى يتضمنها مفهوم الموالاة لله ولرسوله وللمؤمنين .. وأنه لا ينبغى صرف هذا الولاء لغير المسلمين ..

- فهل معنى ذلك أنه يحرم بذل أى نوع من أنواع المحبة لغير أهل الإسلام؟

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ ٢٠٠٤/٧/١٧ م صفحة ١٨ .

- وهل الحب على إطلاقه، من صور الموالاة المحرمة؟ أم أن فى المسألة تفصيلاً؟ وأن الحب المحرم الممنوع - والذى يعد من قبيل موالاة الكافرين - هو حب غير المسلم لأجل شىء من دينه وعقيدته؟

- وهل لو كانت هذه المحبة لموقف نبيل أو خلق كريم أو طبع من الطباع الشريفة الفاضلة، بعيدًا عن الدين والاعتقاد .. فهل تكون تلك المحبة مباحة جائزة؟

- إن هذه التساؤلات الدقيقة، وما يلحق بها من إجابات تثير قضية حساسة وشائكة، ربما لم يتعرض لها أحد من قبل بالتفصيل، وإن كان تناولها بصورة مجملة أمرًا شائعًا فى كثير من كتب الاعتقاد، مع مسيس الحاجة لشرحها حتى لا تلتبس على الأذهان .. ولعل الضرورة الملحة لتفصيل القول فيها كانت هى السبب الأساسى فى إثارتها ومناقشتها خلال هذه الصفحات .. فقد استقر فى أذهان قطاع كبير من الشباب المسلم أن أى لون من ألوان المحبة لغير المسلمين هو فى حقيقة الأمر موالاة صريحة لأهل الكفر .. بل قد يعنى ذلك ارتداد صاحبه وخروجه عن الإسلام .. مع أن هذه المحبة قد لا يقصد بها مطلقًا محبة دين غير المسلم وشريعته..

بل يكون الدافع لها أمرًا فطريًا دنيويًا محضًا، مثل موقف انسانى نبيل .. أو شيمة من شيم الرجولة والمروءة .. أو معنى شريف أقرته كل الأديان كالكرم والعفاف والنجدة وغيرها.

والضابط الدقيق فى هذه المسألة: لو أن مسلمًا قال: إننى أحب فلان اليهودى أو النصرانى أو غير المسلم، فإننا نسأله: **ما هو الدافع وراء هذه المحبة؟**

(١) فإن كان هذا الحب نتيجة إحسان منه .. أو خلق طيب كريم لمسه فيه .. أو كرم ونجدة وشجاعة .. أو غير ذلك مما تحبه النفوس الشريفة .. وتميل إليه بفطرتها وطبيعتها .. فلا شيء فى هذه المحبة مادامت خارجة عن أمر دينه وشريعته .. ومادامت لن تؤدى إلى ترك واجب أو ارتكاب محرم .. ومثل هذه المحبة لا تنكرها الشريعة .. فالشريعة لا تصادم خصائص الفطرة البشرية.

(٢) وإن كانت هذه المحبة متوجهة نحو دينه واعتقاده .. ومتعلقة بملته وشريعته التى يدين بها .. فهذا هو عين الخلل فى الاعتقاد .. وهو عين الموالاة المحرمة المذمومة لغير المسلمين .. وهذه المحبة هى التى يخضع صاحبها لأحكام الموالاة المذكورة فى كتب السلف والخلف.

وقد يستغرب البعض هذا التفصيل .. ولكننا قبل أن نشرع فى سرد الأدلة المؤكدة لضرورة التمييز فى المحبة القلبية بين ما هو فطرى، وما هو اعتقادى .. نحيل القارئ لبعض العبادات القلبية – غير المحبة – والتى فصَّل العلماء فيها على النحو السابق .. ما يدل على أن تقسيم المحبة القلبية إلى فطرية واعتقادية ليس بدعًا من القول.

– فعبادة الخوف: فصَّل العلماء فى شأنها .. فتحدثوا عن الخوف الفطرى، كخوف الإنسان من الوحوش والحيوانات المؤذية، وغير ذلك مما يخاف منه الإنسان الطبيعى عادة .. وذكروا أن هذا الخوف لا شىء فيه، ولا يعد نوعًا من أنواع الشرك .. إذ ليس هو المقصود من إفراد الله تعالى بالخوف .. كما تحدثوا عن الخوف الاعتقادي الذى يجب أن يكون لله وحده .. وهو المقرون باعتقاد قدرة الله سبحانه على جلب المنافع ودفع المضار .. والمقصود أنه ليس كل خوف من غير الله يعتبر شركًا.

وكذلك الحال فى أمر الرجاء .. فليس كل رجاء لغير الله من الشرك. فقد يرجو المسلم إنسانًا فيما يقدر على فعله .. ولا يقدح ذلك فى إيمانه .. أما الرجاء التعبدى الاعتقادي .. فضابطه : ألا يرجو غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله وحده .. كرجاء دخول الجنة والنجاة من النار ورجاء مغفرة الذنوب فى الآخرة.

– والحاصل أن مثل هذه المعانى القلبية فيها تفصيل .. وهذا ينطبق بتمامه على أمر المحبة .. فليس كل محبة لغير المسلمين محمولة على الموالاة المذمومة المحرمة.

ألا ترى أن الإسلام قد أباح للمسلم الزواج من المرأة اليهودية أو النصرانية .. ومعلوم أن أى زوج سوى يحب زوجته، ويبالغ فى إظهار هذا الحب.. أم يا ترى سيبغضها بعد أن تزوج منها؟!

وهل سيكون مطلوبا منه أن يبدى لها العداوة والبغضاء ليل نهار حتى يسلم دينه ويصح اعتقاده؟!

إذن فلماذا تزوجها ابتداءً ما دام يكرهها، بل ويوجب عليه دينه عدم محبتها؟

– وهل يعقل – وهى زوجته وأم أولاده – أن يقول لها كل يوم أنا أكرهك ولا أحبك؟! .. ولو فعل ذلك لن تستقيم الحياة الزوجية.

أم هل يعقل أن ينهاه الإسلام عن حب زوجته التى سمح له ابتداءً بالارتباط بها، وهو يعلم أن من سمات الفطرة السوية أن يحب الرجل زوجته؟!

– ولو فعلها الإسلام لكان نوعًا من العبث .. تعالى الله عن ذلك .. وتنزهت شريعته عن اللغو والعبث.

إن هذا الرجل المسلم حين يبالغ فى إظهار حب زوجته غير المسلمة .. ويلقى على مسامعها كلمات الحب ليل نهار .. فهو لا يفعل ذلك فى العادة حبًا فى دينها، أو رضا بعقيدتها الفاسدة .. وإنما حبًا لها كأنثى وزوجة وأم لأولاده .. وحبا لما جعل الله بين الرجل وزوجته من سكن ورحمة ومودة لا علاقة لها بالدين ولا بالاعتقاد.

ثم ما هو مصير الأبناء فى هذه الحالة؟!

فتلك المرأة المسيحية أو اليهودية ستصير أمًا لأبنائه .. ومادامت هى أمهم فمن الطبيعى أن يحبوها .. بل ربما يفوق حبهم لها حب أبيهم المسلم .. وهذا شعور فطرى وميل طبيعى لا تكلف فيه ولا تصنع .. فهل ستنهاهم شريعة الإسلام عن حب أمهم؟!

وهل من المعقول أن يأمر الإسلام ولدًا ببغض أمه التى حملته وأرضعته وسهرت على راحته السنين الطوال .. بل واختلط دمها بدمه فكانت هى سر وجوده في هذه الحياة؟!

إن هذا المثال يوضح بجلاء أن من الحب ما هو فطرى طبيعى لا شيء فيه .. ولا تثريب على من بذله لغير المسلمين .. فشريعة الإسلام لا تؤاخذ عليه لأنها شريعة الفطرة الإنسانية السوية .. ومن الحب ما هو اعتقادى تعبدى لا ينبغى أن يكون لغير المسلم، وإنما هو لله ولرسوله وللمؤمنين .. فهو متعلق بالدين والملة والشريعة .. ولو توجه هذا الحب لغير المسلم فهو نوع من موالاة الكافرين.

وأحيانًا نسمع من بعض المسلمين من يبدى حبه وإعجابه لشخص «حاتم الطائى» أكرم من عرفته العرب .. بل كثيرًا ما يوصف أهل الكرم فى زماننا بأنه كحاتم الطائى، وليس هناك أحد من ذوى العقول السليمة يعتبر ذلك الوصف مذمة أو عيبًا .. بل على العكس يعتبرونه مصدر زهو وافتخار رغم أن حاتم الطائى كان كافرًا..

فهل يقال عمَّن يصنع ذلك من المسلمين إنه يوالى أعداء الله؟! أو أن لديه خللاً فى الاعتقاد؟!

مع أنه من المستبعد تمامًا أن يحبه لأجل كفره وشركه بالله عز وجل .. ولكن المتبادر إلى الذهن أنه يحب كرمه وجوده وسخاءه وبذله.

وما الدافع الذى حدا بنبى الله نوح عليه السلام أن يرفع صوته بنداء ولده؟! ويصرخ فيه صرخة الوالد الشفوق أن يركب السفينة حتى لا يدركه الغرق؟!، وهو يعلم أن ابنه مصر على الشرك والكفر .. وتأمل تصوير القرآن لذلك الموقف المهيب تجده يفيض بحرارة العاطفة الأبوية، وإشفاق الوالد على فلذة كبده الذى تتناوشه سهام الهلاك أمام عينيه «ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء. قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين» .. ولم يصبر قلب الوالد الحنون بعد هلاك ولده على الكفر حتى ناشد ربه مستشفعًا: «فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين». ولكن الله عز وجل نهاه عن ذلك إذ لا شفاعة لمشرك.

ومع ذلك لم يعتب عليه سبحانه فى أمر عاطفة الأبوة التى لا يملك لها والد دفعًا .. حتى ولو كان ابنه على الكفر المبين .. فأى عاطفة وأى مشاعر تلك التى دفعت نبى الله نوحًا ليفعل ذلك؟!

أو ليست فطرة الله في حب الوالد لولده وفلذة كبده أيًا كان دينه وعقيدته؟!

إن الله عز وجل لم ينه نوحًا عليه السلام عن محبة ابنه .. ولكن نهاه عن الدعاء له بالنجاة والمغفرة، لأن الله تعالى قضى ألا يغفر لمشرك وهذا لا علاقة له بما فطر الله عليه الآباء من حب الأبناء.

فلو أن الإسلام أمر كل أب أن يكره ولده الكافر أو الفاجر كرهًا شخصيًا فطريًا لتعذر علي العباد فعل ذلك .. إذ النفوس مفطورة على عكسه ونقيضه .. ومحال أن يأمر الإسلام بما يناقض الفطرة .. ولكن الإسلام أمر الوالد المسلم أن يكره فى ولده الكفر والفسق والعصيان .. ولا حرج بعدئذ أن يحبه لأنه من صلبه ومن نسله، ولما فيه من خصال خير وبر إن كانت موجودة، ولكن تلك المحبة مهما بلغت فلا يصح أبدًا أن تفوق محبة الولد المسلم الطائع.

وأى عاطفة تلك التى دفعت رسول الله ﷺ وصحبه الكرام إلى طلب المغفرة لآبائهم وذويهم رغم كونهم مشركين؟!

أو ليس دافع الحب الفطرى هو الذى حركهم للدعاء لهم؟! واختصاصهم بطلب المغفرة دون غيرهم؟!

ورغم نهى القرآن عن طلب المغفرة للمشركين ولو كانوا أولى قربى إلا أننا لم نلحظ من القرآن نهيًا عن هذه العاطفة التى حركت المؤمنين لذلك الطلب، وإنما اقتصر النهى على طلب المغفرة ذاته .. يقول الله عز وجل: ﴿ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعدما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾[1].

وتأمل جيدًا موقف المرأة المؤمنة أم حكيم بنت الحارث بن هشام .. وما فعلته مع زوجها الكافر وقتئذ «عكرمة بن أبى جهل». ألد أعداء الإسلام فى مكة، وأحد الذين أهدر دمهم النبى ﷺ.

ما هو الدافع القوى الذى حرك تلك المرأة المؤمنة الصالحة لتذهب إلى رسول الله ﷺ حتى تطلب الأمان لزوجها بعد فتح مكة. ثم تخرج وحدها فى رحلة شاقة تقطع الصحارى والقفار .. وتصل الليل بالنهار باحثة عن زوجها حتى وجدته فى اليمن .. فلم تزل به تدعوه وتلاطفه وترقق قلبه وتغريه بأمان رسول الله ﷺ حتى عاد معها إلى مكة .. وهناك أعلن إسلامه بين يدى النبى ﷺ.. أليست تلك هى عاطفة المحبة الفطرية بين المرأة وزوجها؟!

أم أنها فعلت ذلك كله لأنها تكره زوجها؟! وتكن له العداوة والبغضاء فى صدرها؟!

وأعجب من ذلك ما قام بقلب زينب بنت رسول الله ﷺ رضى لله عنها. لما أسر زوجها العاص بن الربيع فى بدر .. وكان يومئذ مشركًا وهى على الإسلام .. وقد خرج فى قومه لملاقاة رسول لله ﷺ وقتاله .. فلما وقع فى الأسر أرسلت زينب - رضى الله عنها - بقلادة ورثتها عن أمها خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - لتفديه بها .. وكانت هذه القلادة أعز ما تملك زينب.. فلما رآها

س(١) مما يدل على تقدير الشرع الحنيف لتلك المشاعر الفطرية حتى مع الأقارب من المشركين وأن النبى ﷺ لما أمر بإلقاء جيف المشركين فى قليب بدر، وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب، نظر رسول الله ﷺ فى وجه ابنه أبى حذيفة فإذا هو كئيب قد تغير، فقال : يا أبا حذيفة لعلك دخلك من شأن أبيك شىء؟ فقال: لا والله يا رسول الله، ما شككت فى أبى ولا مصرعه ولكننى كنت أعرف من أبى رأيًا وحلمًا وفضلاً فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له أحزننى ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيرًا». الرحيق المختوم ص ٢١٤ ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.

رسول الله ﷺ عرفها .. فرق لها قلبة رقة شديدة .. وقال لأصحابه :«إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا».. قالوا: نعم يا رسول الله .. فأطلقوه ، وردوا عليها الذى لها[1].

- فأى عاطفة تلك التى قامت بقلبها تجاه زوجها الكافر . والذى خرج لقتال النبى ﷺ؟!

- وما الذى دفعها لأن تفديه بأغلى وأثمن ما تملك .. بقلادة أمها خديجة .. رضى الله عنها؟!

- أو ليس هو الحب الفطرى الذى أودعه الله عز وجل فى قلب كل امرأة تجاه زوجها؟!

- وهل كان ذلك الميل الشديد من زينب - رضى الله عنها - تجاه زوجها نوعًا من الموالاة المحرمة؟ اللهم لا، ما دام خارجًا عن أمر دينه وعقيدته.

والمقصود أن المحبة ليست على إطلاقها من صور الموالاة التى لا يصح صرفها لغير المؤمنين.

فهناك حب القلب وحب القالب، كما ذكر بعض العلماء .. ومنهم الشيخ متولى الشعراوى رحمه الله - فحب القالب هو الحب الفطرى الإنساني الذى تميل فيه النفس البشرية للغير بطبيعتها وسجيتها، كحب الزوجات والأمهات والآباء والأبناء والأقارب .. وكذلك حب كل من أسدى إليك معروفًا، أو فرج عنك كربة، أو أنقذك من هلكة، ولا علاقة له بالتعبد والعقيدة شريطة ألا يصرف عن واجب أو يوقع فى محظور.

وأما حب القلب: فهو ما اصطلح العلماء على تسميته بالمحبة الإيمانية، وهذا الحب أمر تعبدى يجب توجيهه لله ولرسوله وللمؤمنين .. ولا يجوز صرفه لغير المسلمين، فهو متعلق بالدين والطاعة .. وهذا النوع من المحبة يتبعض ويتجزأ ويوجه لكل مسلم حسب طاعته .. فالعاصى والفاسق مثلاً يجتمع في حقه الحب والبغض .. فهو يحب من وجه ويبغض من وجه .. يحب من جهة إسلامه ويبغض من جهة عصيانه .. فالعاصى لا يبغض كإنسان ولا كمسلم .. وإنما يبغض ما فيه من فسوق وعصيان بقدره . وإن كان فيه خصلة صالحة أو سجية كريمة فلا حرج فى حبه لأجل هذه الخصلة بعينها مع بغض ما فيه من مخالفة وبعد عن الشرع. وهذا المعنى دقيق للغاية يكاد يكون خافيًا على كثير من الناس.

وقد يقول قائل: فماذا تصنعون بقول الله عز وجل: ﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر

(١) البداية والنهاية (٣ / ٣٠٩) ط . مكتبة الإيمان . المنصورة.

يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾؟!

وكيف تجمعون بينه وبين قوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾.

ففى حين تنهى الآية الأولى عن مودة غير المسلمين حتى ولو كانوا أقرب الأقربين .. فإن الآية الثانية تبيح للمسلم برهم والإحسان إليهم .. فكيف يستقيم البر والإحسان مع عدم المودة؟!

ونقول: إن الآية الأولى توضح للمؤمنين أسلوب التعامل مع غير المسلمين فى حال الحرب والقتال، وتنهاهم نهيًا صريحًا عن مودة أعدائهم حال صدهم عن سبيل الله وإعلانهم الحرب على الإسلام والمسلمين .. وهذا متوافق مع الطبائع السوية إذ كيف يتوجه القلب بالحب والمودة لمن يبذل وسعه فى تخريب الديار، وانتهاك الحرمات. وسفك الدماء حتى ولو كان أقرب الأقربين .. بل إن القلوب فى تلك اللحظة تفقد ما كان فيها من بقية حب ومودة حين يصل الأمر إلى حد تهديد العقيدة واستهداف الدين.

أما الآية الثانية .. فتتحدث عن حال السلم والاستقرار .. وفى تلك الحالة لا حرج على أهل الإيمان أن يبذلوا البر (وهو جماع أعمال الخير) والإحسان لغير المسلمين .. بل إن هذا هو عين ما يأمرهم به دينهم وتمليه عليهم ضمائرهم .. والبر معنى شامل لجميع أبواب الخير والفضل والإحسان.

وبذلك لا يكون هناك تعارض بين الآيتين بل كلتاهما مكملة للأخرى .

وما أروع أن نختم مقالنا بتلك الكلمات الرقيقة لصاحب الظلال فى تفسير آيات من سورة الممتحنة حيث يقول: «إن الإسلام دين سلام، وعقيدة حب، ونظام يستهدف أن يظلل العالم كله بظله وأن يقيم فيه منهجه، وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين .. وليس هنالك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله .. فأما إذا سالموهم فليس الإسلام براغب فى الخصومة، ولا متطوع بها كذلك!. وهو - حتى فى حالة الخصومة - يستبقى أسباب الود فى النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة، انتظارًا لليوم الذى يقتنع فيه خصومه بأن الخير فى أن ينضووا تحت لوائه الرفيع»[1] أ. هـ

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٥٤٤) ط. الخامسة والعشرون - دار الشروق